فلسفة السياسة
عند
فرنسيس بيكون

إعداد الدكتور

رفاعي ممدوح عبدالنبي عرابي

مدرس العقيدة والفلسفة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

٢٨٩٥

المقدمــة

الحمد لله الذي خلق الكون فنظّمه ، وخلق الإنســان وكرّمــه ، وســنّ الدين وعظّمه ، وأنزل الكتاب وأحكمه ، وأرسل محمدًا بالحق وعلّمه ، سبحانه ما أعلى مكانه وأعظمه ؛ والصلاة والسلام على النبي المصــطفى والرســول المجتبى المبعوث رحمة للعالمين ، وقدوة للمؤمنين ، وعلى آله وصحبه ومــن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ،،،،،،،،،،،

فقد وقفت الفلسفة الحديثة على أعتاب تاريخ عتيق ، جــاوز عشــرين قرنا من الزمان ، ابتداءً من القرن الخامس قبل الميلاد ، إلى القــرن الســابع عشر الميلادي .

وقد توزعت ملامح تلك الحقبة المتطاولة على أطــوار عــدة ، بــدأت بالفلسفة اليونانية ومدارسها الطبعية الأولى ، ثم فلسفة العصور الوسطى وما واجهته من عقائد الرهبان التي وقفت في مواجهة الفلسفة ألفا مــن الأعــوام حتى تمكنت من إخضاعها لسيطرة الكنسية فلم تحرز الفلسفة أي تقدم حقيقي .

ومنذ القرن الرابع عشر ظهرت بواكير حركة عقلية حمل لواءها جمــع من العلماء والأدباء وغيرهم ، وصحبها تقدم علمي وكشف جغرافي وإصــلاح ديني ، في ثورية عارمة وحركة سريعة وجهد كبير كان بمثابة آلآم المخــاض لعصر الفلسفة الحديثة .

تلك الفلسفة التي تكاثرت مذاهبها ، وتعددت نظرياتها فشملت الحيــاة وما وراءها، والكون ونواميسه ، والإنسان ودخائله ، والمجتمع وظــواهره ، والدولة ونظمها ، وأثقلت كاهل المفكرين بثروتها الضخمة وتراثها الكبير .

ولقد حاول كل فيلسوف من فلاسفة هذه المرحلة أن يقدم للبشر نظريةً في العقيدة ، أو منهجًا في الأخلاق ، أو نظامًا للمجتمع ، وأدلى كــل مــنهم

بدلوه ، وأصبحت شئون الحياة من أبرز مسائل الفلسفة ، وأضحى الفكر السياسي والاجتماعي يمثل تراثًا ضخمًا في إطار الفكر الفلسفي .

وأصحاب هذا الاتجاه من الفلاسفة هم أصحاب فكر شمولي ، ينظر إلى الناس من خلال مجتمعاتهم كي يقوم بالإصلاح الكلي في في جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، في حين اقتصر غيرهم من الفلاسفة – في الوقت نفسه – على مجرد إلقاء النصيحة في جانب خاص من جوانب الحياة يأتي عرَضًا في مذهبهم الفلسفي.

ونحن لا نجد ظاهرة تستوعب ملامح تلك الفلسفة أقرب من دراسة " الفلسفة السياسية " كاتجاه فلسفي تجلّى في الفكر الحديث ، وجَمَع ألوان النشاط الاجتماعي والثقافي والسياسي والاقتصادي لعصر الفيلسوف وفكره .

ولأن الفلسفة الحديثة قد تعددت مذاهبها وأهدافها ، ولأنها في كل ما أثبتته أو نقضته إنما كان على يقين منها باتصال الفكر بالحياة ، فإن هذا البحثَ لا يسع مثل هذه الدراسة كلها ، ولذلك فقد اقتصرت على دراسة هذا الاتجاه وتلك النزعة عند فيلسوف واحد من فلاسفة هذه المرحلة وهو " فرنسيس بيكون " ؛ وجعلت عنوانه :–

" فلسفة السياسة عند فرنسيس بيكون "

وربما كان الشق الأول من العنوان المختار لهذا البحث وهو " فلسفة السياسة " مما لا تألفه العين كثيرًا في إطار البحوث التي تقدم في نطاق التخصص بقسم العقيدة والفلسفة ، على الرغم من أن " السياسة " – كما هو معلوم عند أرباب التخصص – هي أحد أقسام الحكمة – الفلسفة – العملية [1].

---

(١) تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات ، لأبي علي بن سينا ، ط ٢ بدون تاريخ ، دار العرب للبستاني ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

كما أن تاريخ الفكر الفلسفي يحفل بكثير من الباحثين في هذا الميدان ؛ وعلى الجملة فلا يستطيع باحث أن يغفل الدور السياسي الذي لعبه الفلاسفة في المجتمعات المختلفة ، وما أفرزه ذلك من أفكار ومفكرين أسهموا بشكل كبير في تشكيل حركة الفكر السياسي خلال القرون المتعددة .

ومما يسترعي الانتباه أننا نجد هذا الفرع من فروع التخصص – فلسفة السياسة – يَلْقى عناية كبيرة من الأقسام المناظرة بالجامعات الأخرى ، حتى أُفردت له مقررات ، بل شُعب بذاتها داخل أقسام الفلسفة .

وحريّ بنا ونحن ننتمي إلى هذا القسم المتميز – قسم العقيدة والفلسفة – وننتسب إلى هذه الجامعة العريقة – جامعة الأزهر الشريف – التي تُعد بحق أكبر وأعرق جامعات العالمين العربي والإسلامي ، أن نكون على اتصال بهذا الفرع من فروع التخصص ، حتى نكون على صلة فاعلة بما يدور حولنا على مستوى حركة الفكر والمجتمع .

ومن هنا يأتي هذا البحث لنحاول من خلاله التأكيد على أننا غير بعيدين عن حركة المجتمع وما يدور فيه من أحداث ، وما يموج به الواقع من تيارات فكرية .

أسباب اختيار الموضوع : –

وقد دفعني لاختيار هذا الموضوع عدة أسباب ، من أهمها :

أولًا : أن فلسفة السياسة تعني نظمًا متعددة ومذاهب مختلفة في الاجتماع والمدنيّة والثقافة والاقتصاد ، الأمر الذي يؤكد عمق الصلة بين الفلسفة والمجتمع ، ويُظهر – بجلاء – أن تاريخ الفلسفة سجل حافل للكفاح العقلي من أجل الحياة ، ممثلة في حقائق الوجود الكبرى ، ومكانة الإنسان في الكون حوله ، ومناهج البشر نحو السعادة .

ثانيًا : أن كثيرًا من العلماء والباحثين الذين تناولوا " فرنسيس بيكون " بالبحث والدراسة قد تناولوه من حيث إعلائه من شأن المنهج الاستقرائي ، وتحريره للعقل من قيود الوهم والخرافة ، وكونه " أبا التجريبية الحديثة " ؛ في حين أنهم قد أغفلوا جانبا مهما من جوانب فلسفته ، وهو " فلسفته السياسية " ، وإن كانوا قد تناولوه عند الحديث عن حياته بصورة عابرة ، دون إظهار أسسه وحقائقه وآثاره .

ثالثًا : أن فرنسيس بيكون من الشخصيات التي تضاربت الآراء في الحكم عليها، فقد تنازعته الفلسفة والسياسة ، فكانت ميوله وطبيعته تربطه بالفلسفة ، أما مولده وتربيته وثقافته فقد اتجهت به نحو السياسة ؛ كما أن السياسة قد صعدت به إلى قمة المجد ثم هوت به إلى الحضيض ، مما كان لهذا الأمر من أثر بالغ قد حدا بهذا الفيلسوف إلى أن يدلي بدلوه ويشارك برأيه في إرساء قواعد مجتمع فاضل ينشد الحق ويرنو إلى السعادة ، وذلك من خلال سيطرة الإنسان على الطبيعة وما فيها ، وتسخير مقدراتها لما يحقق سعادة البشرية .

رابعًا : أن فرنسيس بيكون حين يتحدث – في القرن السابع عشر الميلادي – عن السياسة ، وعما ينبغي على الحاكم تجاه شعبه ودولته فإنه – أيضا – يتحدث عن كل حاكم في كل زمان يريد أن يحتفظ بمكانه في الحكم وبتمسك الشعب به .

خامسًا : أن المجتمع في تلك الأيام التي نعيشها في أمسّ الحاجة إلى الاطلاع على الآراء السياسية التي أدلى بها الفلاسفة ، ليستفيد بها ، ويطبق ما يتفق منها ومتطلبات المجتمع .

منهج البحث : هذا البحث ذو شقين :-

الشق الأول : هو تقديم وتحقيق ودراسة حياة فرنسيس بيكون ، وذلك للوصول إلى العوامل والمؤثرات التي ساهمت في تكوين فلسفته السياسية .

الشق الثاني : هو عرض ودراسة هذا الجانب من فلسفة بيـــكون – فلسفة السياسة – وتحليلها ونقدها ، ثم بيان أثرها في إطار الفكر الفلســفي ؛ وذاك هوصلب الموضوع وجوهره .

ومن هنا فإن المنهج الذي اتبعته في هذا البحث يتمثل في المنهج الاستقرائي والاسترادادي والاستنباطي والجدلي والنقدي والتحليلي والمقارن ، وهو ما يعرف بالمنهج التكاملي ، حيث إن الاعتماد على نوع واحد من أنواع المناهج أمــر عسير التحقيق والتطبيق ، كما أنه لا يتفق وطبيعة البحث العلمي ، ومن ثَمّ لا يحقق الغاية المنشودة للباحث في دراسته .

أما عن الخطوات الطبيعية لهذا المنهج فقد جاءت على النحو التالي :

١- قمت بعمليتي التحليل والتركيب فقسمت القضية المراد بحثها إلى جزئياتها الأصلية وبحثت كل جزئية على حدة ، ثم ربطت بين هذه الجزئيات بعد تحليلها وبحثها، ربطا يقوم على التناسق الفكري بين هذه الجزئيات .

٢- تتبعت آراء فرنسيس بيكون في مؤلفاته ومقالاته ، ثم من كتب عنه من معاصريه – شرط ألا يخالفه في المذهب – ومن تلاهم ، مراعيًا في ذلك الدقة والموضوعية – قدر استطاعتي – في عرض واستنباط الأدلة والنتائج .

٣- قمت بالمقارنة بين ما أدلى به بيكون نفسه من آراء سياسية فــي مقالاته ثم في مدينته الفاضلة التي أطلق عليها " أطلنتس الجديدة " ، وقارنــت بينهما ، ثم ما قيل عنه من آراء العلماء فيه وفيما صرّح به ، مســتنبطا مــن ذلك أهم النتائج في الحكم عليه، ثم عقّبت على كل ذلك بما توصلت إليــه مــن أدلة .

٤- قمت ببيان الأسس والعوامل التي قامت عليها فلسفة بيكون السياسية ، مشيرا إلى النتائج والآثار التي خلّفتها آراءه في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ..... وغيرها .

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة .

فالمقدمة : اشتملت على توطئة للموضوع ، وأسباب اختياره ، ومنهج الباحث، وخطة البحث .

أما التمهيد : فقد تحدّثت فيه عن مفهوم أهم المصطلحات التي تضمنها عنوان البحث ، وهي : الفلسفة ، السياسة ، فلسفة السياسة .

أما المبحث الأول : فقد تضمن الحديث عن حياة فرنسيس بيكون ، وشخصيته، وأخلاقه ، وأهم مصنفاته .

أما المبحث الثاني : فقد تحدثت فيه عن فلسفة فرنسيس بيكون السياسية ، وذلك من خلال مقالاته ، ثم من خلال مدينته الفاضلة " أطلنتس الجديدة " ، ثم تحدّثت عن أهم الأسس والعوامل التي قامت عليها هذه الفلسفة.

أما الخاتمة : فقد تحدثت فيها عن أهم النتائج التي توصّلت إليها خلال البحث.

وبعد : فهذا جهد المقل فإن كان فيه من صواب فالتوفيق من الله وحده ، وإن كانت الأخرى فمني ومن الشيطان ، وما إليها سعيت ، وحسبي أني بشر والكمال لله وحده ، والعصمة لأنبيائه ورسله ، والله أسأل أن يوفقني لما يحبه ويرضاه .

الباحث

رفاعي ممدوح عبدالنبي عرابي

التمـهيـــــــــد
تحديد أهم المصطلحات التي تضمنها عنوان البحث

أهمية تحديد المصطلحات :-

لا شك في أن تحديد المصطلحات والمفاهيم والألفاظ يساعد في زيـــادة الفهم والوضوح من جهة ، وتحسين سبل التواصل بين المتخاطبين من جهـــة أخرى ؛ إذ إن من أهم مقدمات هذا التواصل فهـــم المصـــطلحات والمفـــاهيم ، لكونـها مفاتيح العلوم والأفكار والمعارف ، فالمقولات والألفاظ والعبارات هـــي خزائن المعاني ، مع العلم أن الضرورة تقتضي فهم هذه المصطلحات والمفاهيم من وجهة علاقة المفهوم أو المصطلح بالواقع المحيط .

وانطلاقًا من هذه النظرة فسوف أقـــوم بتوضـــيح أهـــم المصـــطلحات والمفاهيم وبيان الحقائق التي تضمنها عنوان البحث ، وذلك كما يلي :

أولاً : تحديد مفهوم " فلسفة " :-

يتفق الباحثون في الدراسات الفلسفية على أن كلمة " فلسفة " يونانية الأصل، إذ ترجـــع في أصل إطلاقها إلى شـــقين : (فيلـــو- Fhilo) وتعنـــي محبة ، و (سوفيا – Sofia) وتعني الحكمة ، لتصبح الكلمة بعد تركيبهـــا (فيلوسوفيا) ، أي : محبة الحكمة.

يقول الفارابي : " اسم الفلسفة يوناني ، وهو دخيل في العربية ، وهو على مذهب لسانهم : " فيلوسوفيا " ، ومعناها : إيثـــار الحكمـــة ، وهـــو فـــي لسانهم من "فيلو" و"سوفيا " ، وفيلو : الإيثار ، وسوفيا : الحكمة .

و " الفيلسوف " مشتق من " الفلسفة " ، وهو على مذهب لسانهم : " فيلوسوفوس " ، ومعناه : المؤثر للحكمة ؛ والمؤثر للحكمة عندهم : هو الذي يجعل الوكد من حياته وغرضه من عمره الحكمة " [١].

وقد اختلفت المعاني التي يمكن أن تندرج تحت هذه الكلمة – فلسفة – باختلاف أنظار الفلاسفة ، والمذاهب الفلسفية عبر مراحل الفكر الإنساني المختلفة، ولهذا كان من الصعوبة بمكان وضع تعريف جامع مانع يمكن أن يحيط بمعاني كلمة " فلسفة " عبر العصور ؛ " فقد كان معنى الفلسفة يتغير من حين لآخر ، وتتسع دائرة اختصاصها أو تضيق تبعا لمستوى التفكير أو انحطاطه في مجتمع من المجتمعات ، كما كان موضوعها يتغير بتغير مفهومها " [٢].

وإذا حاولنا استقراء المعاني التي اندرجت تحت كلمة " فلسفة " عبر مراحل التفكير الإنساني فإننا نجد أن معناها قد اتسع في بداية أمرها ليشمل كل المعارف الإنسانية ؛ إذ كانت تطلق على كل من كمل في شيء ، عقليًا كان أو ماديًا ، إلى أن استقلت عنها العلوم تدريجيًا لتستقر في نهاية أمرها على معنيين :-

---

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، لابن أبي أصيبعة ، تحقيق : د/ نزار رضا ، طبعة مكتبة الحياة ببيروت – بدون تاريخ ، ص ٦٠٤.

(٢) الفلسفة اليونانية مقدمات ومذاهب ، د/ محمد عبدالرحمن بيصار ، طبعة دار الكتاب اللبناني ببيروت سنة ١٩٧٣ م ، ص ٩ .

الأول : " دراسة العلوم بالمعنى الدقيق دراسة مباشرة ، حيث تنظر الفلسفة في أصل العلوم ومعارفها ، تنظر مباديء اليقين ، وتحاول النفاد إلى العلل والوقائع التي يقوم عليها بناء العلوم الوضعية " (١).

وهذا المعنى هو الذي تستهدفه الإطلاقات الحديثة لكلمة " فلسفة " في الدراسات المتخصصة ؛ فيقال مثلا عند منح درجة الدكتوراه في أحد الفروع العلمية : دكتوراه الفلسفة في الكيمياء ، أو في الطبيعة ، أو الاقتصاد والعلوم السياسية ..... إلى آخره .

الثاني : أن تكون الفلسفة دراسة للعقل من حيث كونه يتميز بأحكام تقويمية، وبذلك يكون مركز الفلسفة ومحورها : " المجموعة التي تتكون من العلوم المعيارية الثلاثة : المنطق والأخلاق والجمال " (٢).

وبهذا يتضح أن الفلسفة تحتوي على جانبين : الأول علمي أو نظري ، والثاني عملي ؛ وإذا أردنا جمع المعنيين في جملة واحدة تعبر عن مفهوم الفلسفة في واقعنا المعاصر ، قلنا إنها : العلم بحقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح .

وبتعريف أدق فالفلسفة هي : البحث النظري في العلاقات المنطقية التي تربط بين الأفكار المستخدمة في فهم بعض أجزاء الحقيقة ، وخلال البحث النظري تتولد في ذهن الفيلسوف مجموعة من الأفكار الكلية ، التي تضع

---

(١) نصوص ومصطلحات فلسفية ، د/ فاروق عبدالمعطي ، ط ١ سنة ١٩٩٣ م ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ص ٤٨٤ .

(٢) المدخل إلى الفلسفة ، د/ علي عبدالمعطي محمد ، طبعة دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية سنة ٢٠٠٠ م ، ص ٤٥ .

القواعد والمقاييس المثالية لتركيب المجتمعات الإنسانية ، وتدل على ما يجب أن يكون عليه حال تلك المجتمعات .

أما الفيلسوف فهو – كما يقول الشيخ / محمد عبده – " الشخص الذي له رأي ومذهب في العقليات والاجتماعيات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه " [1].

وباستقراء تاريخ الفلسفة نجده سجلا حافلا للكفاح العقلي من أجل الحياة ممثلة في حقائق الوجود الكبرى ، ومكانة الإنسان في الكون حوله ، ومناهج المسيرة البشرية نحو السعادة ؛ وذلك هو هدف الفلسفة الذي عبّرت عنه مذاهبها في صيغ مختلفة .

<u>ثانيًا : تحديد مفهوم " السياسة – politics " :–</u>

السياسة فرع من (العلم المدني) يبحث في أصول الحكم وتنظيم أمور الدولة ، وتدبير شئونها ، وقد عرّفها علماء اللغة فقالوا : السياسة هي الرئاسة ، أي التوجيه والقيادة ؛ يقول ابن منظور : " السوس هو الرياسة : يقال ساسوهم سوْسا ، وإذا رأّسوه قيل : سوّسوه وأساسوه ؛ وساس الأمر سياسة : قام به ، وسوّسه القوم : جعلوه يسوسهم، يقال : سوّس فلان أمر بني فلان : أي كُلِّف سياستهم " ، وفي الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ ﴾ [2] ، أي تتولّى أمورهم ، كما يفعل الأمراء

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، تحقيق : د/ محمد عمارة ، طبعة دار الشروق بالقاهرة سنة ١٤١٤ هـ ، جـ ٢ ، ص ٤٦٢ .

(٢) صحيح البخاري ، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق : محمد زهير ، ط ١ سنة ١٤٢٢ هـ ، دار طوق النجاة بدمشق ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، حديث رقم (٣٤٥٥) ، ج٤ ، ص ١٦٩ .

والولاة بالرعية ؛ والسياسة : القيام على الشيء بما يصلحه ؛ والسياسة : فعل السائس ، يقال : هو يسوّس الدواب : إذا قام عليها ، والوالي يسوّس رعيته " [١].

وجاء في المعجم الوسيط : " ساس الناس سياسة : تولّى رياستهم وقيادتهم ، والدواب : راضها ، فهو سائس ، والجمع ساسة وسوّاس " [٢].

ويقول المقريزي : " السياسة لغة هـــي مصدر الفعل " ساس " "يسوس " ، أي تعهد الشيء بما يصلحه ، وذلك عن طريق القيادة والتدبير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم رُسمت بأنها القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحوال " [٣].

ومن هذا يتبين أن كلمة " السياسة " في اللغة تدور في أصل مادتها حول معاني الرئاسة والقيادة ، ولا شك أن هذه المعاني تستلزم نوعا من الرعاية والتدبير لما يناط بها ، وصولا به إلى حالة من الصلاح والحسن ، ولهذا كانت الكلمة صالحة لأن تطلق على سياسة الفرس ، كما تطلق على سياسة الصبي والقبيلة والأمة .

---

(١) لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور ، ط ٣ سنة ١٤١٤ هـ ، دار صادر – بيروت ، جـ٦ ، ص ١٠٨ ، فصل السين المهملة .

(٢) المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ط ١ سنة ١٩٦٠ م ، مكتبة الشروق الدولية ، جـ ١ ، ص ٤٦٢ ، باب السين .

(٣) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، أحمد بن علي المقريزي ، طبعة مكتبة المتنبي ببغداد سنة ١٩٦٥ م ، ص ٢٢٠ .

وقد يطلق لفظ السياسة على سياسة الرجل نفسه ، أو على سياسته دَخْلَه وخَرْجَه، أو على سياسته أهله وولده وخدمه ، كما يطلق على سياسة الوالي رعيته .

وقد يطلق لفظ السياسة على كل عمل مبني على تخطيط سابق كسياسة التنمية الاجتماعية ، أو سياسة التنمية الاقتصادية ، أو سياسة التعليم وغيرها

و" (السياسي – Politique) هو المنسوب إلى السياسة ؛ تقول : هذا أمر سياسي ، وهو الأمر المدني المشترك بين المواطنين الخاضعين لقوانين واحدة .

وإذا أطلق لفظ " السياسي " على من يتولى الحكم في الدولة دلّ ذلك على نوعين من الرجال ، أحدهما : رجل الدولة ، وهو الذي يقيم الحكم على سنن العدل والاستقامة ؛ والآخر : رجل الحكم الماهر في الانتفاع بالظروف المحيطة به لتحقيق مآربه "[1] .

وما يتضمنه لفظ (السياسة) أن يكون (السائس) صاحب حكمة وخبرة ودُرْبة ، حتى يؤدي المراد من أهداف السياسة الكبرى المتعلقة بتطوير حياة الركب الإنساني .

وأما عن مفهوم السياسة في الاصطلاح فهي : " اسم للأحكام والتصرفات التي تدبر بها شئون الأمة في حكومتها وتشريعها وقضائها ، وفي

---

(١) المعجم الفلسفي ، جميل صليبا ، طبعة دار الكتاب اللبناني ببيروت ، سنة ١٩٨٢ م ، جـ ١ ، ص ٦٨٠ .

جميع سلطاتها التنفيذية والإدارية ، وفي علاقاتها الخارجية التي تربطها بغيرها من الأمم " [١].

وإذا كان هذا هو مفهوم السياسة – من جهة الاصطلاح – على وجه العموم، فإننا نلاحظ أن هذا المفهوم في الفكر الإسلامي يختلف عنه في الفكر الغربي ، حيث يتجه الفكر الإسلامي إلى ربط التدابير والأحكام التي تُناط بالولاة والحكام بمقاصد الشريعة الإسلامية وروحها العامة ، حتى أصبح مصطلح السياسة يضاف في الغالب إلى الشريعة ، فيقال : (السياسة الشرعية) ، والتي يقصد بها: " تدبير الشئون العامة للدولة الإسلامية بما يكفل تحقيق المصالح ودفع المضار ، مما لا يتعدى حدود الشريعة وأصولها الكلية ، وإن لم يتفق وأقوال الأئمة المجتهدين " [٢].

وهـــذا يعني أن السياسة الشرعية تمثل نوعا من الاجتهاد ، الذي تراعـــى فيه المصالح العامة للدولة الإسلامية ، بما يتفق مع الشريعة الإسلامية ، وفق ظروف العصر ومقتضياته ، وبهذا تدخل في باب المصالح المرسلة .

" أما الفكر الغربي فهو لا يعوّل على هذه الصلة بين الدين والسياسة ، ومن ثَمّ توصف السياسة في هذا الفكر بأنها " سياسة وضعيّة " ، تتبنّى النظرة

---

(١) السياسة الشرعية والفقه الإسلامي ، للشيخ عبدالرحمن تاج ، ملحق مجلة الأزهر ، عدد شهر رمضان لسنة ١٤١٥ هـــ ، جـــ ١ ، ص ٨ .

(٢) السياسة الشرعية ، أو نظام الدولة الإسلامية في الشئون الدســـتورية والخارجيـــة والمالية ، للشيخ عبدالوهاب خلاف ، طبعة دار الأنصار بالقاهرة ســـنة ١٩٧٧ م ، ص ١٥ .

" العلمانية " ، أو " الدنيوية " التي تتجه إلى تحقيق مصالح الأفراد والمجتمعات على أساس من العرف والعادة والتجارب والأوضاع الموروثة " [1].

وإذا كانت السياسة في الفكر الإسلامي لا تغفل عن ملاحظة الجانب الأخروي ، حتى أصبحت السياسة في قواميس الفكر والثقافة الإسلامية تجمع بين أهداف السياسة العاجلة والآجلة ، فأصبحت على نحو ما عرّفها بعض علماء الإسلام فقالوا : " هي استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل ، وتدبير المعاش مـــــع العموم على سنن العدل والاستقامة " [2].

من ذلك يُفهم أن النظام السياسي في الإسلام هو ما يكون به حفظ نظام الدين والدنيا ، في أتم صورة وأفضل توجيه ، بالنسبة للأمة وأفرادها ، الراعي والرعية ، في كافة الأمور والأنماط الدنيوية الموصلة للسعادة الأبدية في الآخرة من خلال التوجيهات الإلهية على لسان الرسل والأنبياء عليهم السلام .

وإذا كان هذا هو شأن السياسة في الفكر الإسلامي ، فإن السياسة في الفكر الغربي تقوم على أساس من عناصر الصراع والقوة ، التي تدور في إطار الحياة الدنيوية ، " فالإنسان دنيوي فقط ... والحضارة دنيوية – علمانية

---

(١) مدخل إلى الفلسفة السياسية : رؤية إسلامية ، محمد وقيع الله أحمـــد ، ط ١ ســـنة ٢٠١٠ م ، دار الفكر بدمشق ، ص ٢٢ .

(٢) فاتحة العلوم ، للإمام أبي حامد الغزالي ، طبعة دار الهداية بالقـــاهرة ســـنة ١٣٣٥ هـــ ، ص ٦ ؛ الكليات ، لأبي البقاء الكفوي ، ط ٢ سنة ١٩٩٨ م ، مؤسسة الرســـالة – بيروت ، ص ٥١٠ ؛ تطور الفكر السياسي في الإسلام ، د/ فتحية النبـــراوي – د/ محمد نصر مهنا ، ط ١ سنة ١٩٨٤ م ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

– فقط ..... ومن ثَمّ فالسياسة هنا هي فن الممكن – الدنيوي – من الواقع الدنيوي ، دونما علاقة بين هذه الدنيا وبين الآخرة ، ولا علاقة فيها بين تدبير المعاش ، وسياسة العمران ، والإستقامة الدينية " [1].

ومن هذا يتضح أن السياسة نوعان : شرعية ومدنية ، وتستمد الشرعية أحكامها من الشريعة ، أما المدنية فتسمى بـــ" علم السياسة " ، وهو من أقسام الحكمة العملية ، وهو علم يبحث في أنواع الحكومات والدول والمجتمعات المدنية وأحوالها والنظريات السياسية في الحكم ، وفي علاقات الدول والحكومات والمجتمعات بعضها ببعض .

<u>ثالثًا : تحديد مفهوم " فلسفة السياسة " :–</u>

إذا كان الباحث قد حدد مفهوم مصطلحي " الفلســفة " و " السياســة " على حدة ، فإن طبيعة البحث تقتضي تحديد مفهومهما مقتــرنتين حتــى تــتم الفائدة المرجوة من وراء هذا التحديد .

إن فلسفة السياسة هي ذلك الفرع من فروع الفلسفة الذي يركز بحثــه حــول اكتشاف الحكمة ، والوصول إلى الحقيقة المتعلقة بالمبايء الأصــولية للحيــاة السياسية ، ومعرفة علاقات هذه المباديء بعضها ببعض ، وعلاقات المباديء السياسية بمباديء الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

تقول الدكتورة / خديجة النبراوي : " إن فلسفة السياسة هــي توليــد وتركيب الآراء، والمعلومــات ، والتــأملات ، والبــدهيات ، والافتراضــات ، والقواعد ، والتعميمات المتصلة بتوزيع واستخدام القوة في المجتمع " [1].

---

(١) الإسلام والسياسة – الرد على شبهات العلمانيين ، د/ محمد عمــارة ، ط ١ ســنة ١٩٩٧ م ، دار الرشاد بالقاهرة ، ص ٢١ .

ومعنى ذلك أن فلسفة السياسة تبحث في تكوين الحكومة ، وتعيين مهامها ، وتحديد سلطاتها ، وتأصيل المباديء والغايات الكبرى للمجتمع السياسي .

ولزيادة هذه التعريفات التجريدية جلاءً يمكن أن نستخدم مثالا يقدمه لنا رائد الفلسفة السياسية " أفلاطون " في كتابه " الجمهورية " ، فقد حاول فيه أن يرسم صورة مثالية لجمهورية فاضلة ، تؤسس بديلا للمجتمع الديموقراطي الأثيني ، الذي انهار عقب الحرب التي خاضها مع مدينة اسبارطة .

وأساس هذه الجمهورية الفاضلة – كما يحدده أفلاطون – هو الملك الفيلسوف ، الذي يترقى في مدارج التزكية والتعليم إلى أن يتصل بالحقيقة الأزلية، ثم يعود لينقل الشعب من وهدته إلى مراقي السمو الروحي والأخلاقي والاجتماعي.

وعلى هدي الطريقة الأفلاطونية فإن سائر الفلسفات السياسية – على اختلافها – تنحو هذا المنحى في الخلط بين الأفكار والأخلاق والقيم ، وتتحدث عما ينبغي أن يكون عليه المجتمع سعيا وراء تقديم الإطار السياسي السليم للحياة الإنسانية ؛ وهذا الأمر هو ما سيتحدث عنه الباحث بالتفصيل عند " فرنسيس بيكون " .

وموضوع هذا العلم – فلسفة السياسة – هو " المراتب المدنية وأحكامها ، والمجتمعات الفاضلة وغيرها ، ووجه استبقاء كل منها ، وعلة زواله ، ووجه انتقاله ، وما ينبغي للحاكم وأعوانه من الوزراء وغيرهم ،

---

(١) موسوعة أصول الفكر السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، د/ خديجة النبراوي ، تقديم : د/ حسن عباس زكي – د/ علي جمعة محمد ، ط ١ سنة ٢٠٠٤ م ، دار السلام بالقاهرة ، ص ١٨ .

وللشعب من حقوق وواجبات،وعلاقات هؤلاء جميعا بعضهم ببعض، وما تكون به عمارة المدن " [1].

والسياسة – من جهة أخرى – نوعان : نظرية وعملية ، " والنظرية موضوعها الظواهر السياسية التي تتعلق بالحكومة والدولة ، أما العملية فموضوعها الظواهر الاقتصادية والاجتماعية ، أي الممارسة العملية للحكم من جهة تطبيق العدالة وحسن الإدارة " [2].

وبهذا يتبين أن السياسة ضرورة بشرية ، لأنها تنقل حالة الاجتماع الإنساني من حالة الفوضى والاحتراب والعيش البدائي الذي لا يقوم على نوع منظم ومقنن من التعاون والتبادل ، إلى طور أرقى من العيش يقوم على شيء من علاقات التعاون والتبادل السلمي .

والله تعالى أعلى وأعلم

*****

(١) المعجم الفلسفي ، د/ عبدالمنعم الحفني ، ط ١ سنة ١٩٩٠ م ، الدار الشرقية بالقاهرة ، ص ١٥١، ١٥٢ .

(٢) الأخلاق والسياسة – دراسة في فلسفة الحكم ، د/ إمام عبدالفتاح إمام ، طبعة المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة سنة ٢٠٠١ م ، ص ٢٠٩ .

المبحث الأول

فرنسيس بيكون – Francis Bacon

(١٥٦١ – ١٦٢٦) م

حياته وأعماله

شهدت انجلترا في القرن السادس عشر عصرا ذهبيا زاهرا بلغ أقصى أوجه في عهد الملكة إليصابات ، إذ لم تكد تستكشف القارة الأمريكية حتى تحول مجرى من البحر الأبيض إلى المحيط الأطلسي ، وانتقلت معها النهضة من فلورنسا وروما وميلان والبندقية إلى مدريد وباريس وأمستردام ولندن ، وقد بدأت هذه النهضة بـــ" روجر بيكون " ثم نمت وترعرعت فأينعت غيره كثيرًا من العلماء، فاتسعت المعرفة ، وضعف الخوف من الكنيسة وسلطة رجالها ، وقلّ تفكير الناس في عبادة المجهول وزاد فـــي محاولة التغلب عليه ، وتحطمت القيود ، فلم يعد هناك حدود أمام ما يمكن للإنسان أن يحققه ؛ ولهذا فإن هذا العصر كان عصر تحقيق وأمل وعنف لبدايات ومشاريع جديدة في كل ميدان . في ذلك العصر الذهبي ولد فرنسيس بيكون .

المطلب الأول
حياته

ولد فرنسيس بيكون في الثاني والعشرين من شهر يناير سنة ١٥٦١ م بلندن ، لأبوين ينتميان لأسرتين عريقتين ؛ فقد كان أبوه السير " نيقولاس بيكون " يتربع في منصب من أسمى مناصب الدولة ، حيث كان حاملا للختم الملكي طوال العشرين سنة الأولى من حكم الملكة إليزابيث ، وكان نابغا نابها ذائع الصيت واسع الشهرة ، وإن يكن قد خفت اسمه بعد ذلك فما ذاك إلا لأن ذكر ابنه قد طغى عليه فبدده في ظلاله ؛ وفي ذلك يقول الكاتب الانجليزي " ماكولي " : " إن شهرة الإبن قد طغت على صيت والده الذي لم يكن شخصا عاديا ، إذ أن العبقرية ذروة تسير نحوها العائلة عن طريق المواهب ، وقد تجلت ذروة هذه المواهب في فرنسيس بيكون الذي بلغ قمة المجد السياسي والفلسفة " [١].

وكانت أمه السيدة (آن كون) إمرأة مثقفة وتقية – أيضا – للغاية ، كانت كأبيها السير (أنتوني كون) من دعاة الإصلاح الديني ،ومن أتباع مذهب(كالفين) المتشددين في مسائل الدين ، وكانت هي نفسها عالمة بلغات كثيرة ، ومعلمة لاهوت ، فجعلت من نفسها معلمة لإبنها ، ولم تدخر جهدا في تنشئته وتكوينه منذ نعومة أظفاره لتخرج منه رجلا قويا ، وقد أخذ عنها – على الأرجح – حبه الفطري للمعرفة [٢].

---

(١) قصة الفلسفة ، ول ديورانت ، ترجمة : د/ فتح الله أحمد المشعشع ، ط ٦ سنة ١٩٨٨ م ، مكتبة المعارف – بيروت ، ص ١٣٦ .

(٢) فلسفة فرنسيس بيكون ، د/ حبيب الشاروني ، ط ١ سنة ١٩٨١ م ، دار الثقافة ، الدار البيضاء بالمغرب ، ص ٥ .

ولما بلغ الثانية عشرة من عمره أُرسل إلى جامعة كامبريدج ، حيث لبث فيها أعواما ثلاثة ، ترك الجامعة بعدها دون أن يحصل على إجازة علمية ، تركها ساخطا ناقما على نصوص كتبها ووسائل تعليمها ، لكنه اكتشف بالمقابل في ذلك الحين فلسفة أرسطو ، وأدرك ثغراتها بالنسبة لمقتضيات الثقافة الجديدة .

وفي عام ١٥٧٦ م ذهب إلى فرنسا مُكَلَّفا بمهمة لدى سفارة إنجلترا في باريس ، ومكث فيها حتى عام ١٥٧٩ م ، وتأثر بالآراء الرائجة في الأوساط الثقافية الفرنسية [١].

ثم استدعي إلى انجلترا عند وفاة والده ، واضطرته المتاعب المالية التي كانت تعاني منها أسرته إلى أن يدرس أصول المحاكمات ليمارس مهنة المحاماة ليتكسب منها ؛ إذ إنه وجد نفسه في الثامنة عشرة من عمره وقد أصبح يتيما معدما بعد أن اعتاد على حياة الترف والبذخ ، كما وجد صعوبة في تكييف نفسه على على حياة البساطة التي فرضت عليه ، فالتمس في أعمال القضاء سبيلا للحـــياة ، ولذا فقد التحق عام ١٥٨٠ م بمعهد (جريز إن) المختص في تخريج القضاة والمحامين ، وبقي عضوا فيه إلى نهاية حياته .

وبعد أن أصبح محاميا عام ١٥٨٢ م بذل جهودا حثيثة للحصول على منصب يعود عليه بمغنم مادي – دون أن يتخلى عن تطلعاته العلمية – وألحّ في الوقت نفسه على ذوي السلطان من أقربائه أن يهيئوا له عملا في إحدى

---

(١) معجم الفلاسفة ، جورج طرابيشي ، ط ٣ سنة٢٠٠٦ م ، دار الطليعة ببيـــروت ، ص ٢٢٦ .

مناصب الدولة السياسية ، لعلها تزيح عن كاهله عبء الحياة الذي ثقل عليه حتى أعياه ، ولكن مساعيه لم تفلح في الحصول على ما رغب فيه .

فأخذ بيكون يشق لنفسه الطريق ، فانتخب عضوا في البرلمان سنة ١٥٨٣م، فأحبه ناخبوه ، وأعادوا انتخابه مرة بعد مرة ، وهكذا نجح بيكون في أن يشق لنفسه طريقا في معترك الحياة السياسية [١].

وفي عام ١٥٩٥ م قام (الإرل إسكس) – الذي كان من ذوي الجاه والسلطان ، كما كان صديقا سخيا وفيا كريما مع بيكون – بإهدائه ضيعة جميلة تعويضا عن فشله في تأمين منصب سياسي له ، فهيأت له هذه الضيعة أسباب الترف والنعيم ، وكانت هذه الهبة جديرة بأن تأسر بيكون ، ولكن هذا لم يحدث .

فرغم هذا الوفاء والسخاء من جانب الصديق (الكونت إسكس) فإن بيكون قد تنكّر لكل هذا ووقف ضده في قضية من أعقد القضايا ؛ ذلك أن " الكونت إسكس قد تغيرت مكانته عند الملكة ، واستحكمت بينهما الخصومة ، واشتد النفور، واتُهِم بالتآمر والثورة عليها إثر عودته بالفشل في مهمة بُعث إليها في إيرلندة ؛ كانت المهمة هي إخماد الفتنة التي نشبت في إيرلندة وإخضاعها لبريطانيا ، وكان فشله يعود إلى دسائس الحاشية بالقصر ، وعندما علم بذلك ثار واشتد غضبه ، وكانت ثورته على الحكومة والبلاط أكثر منها على الملكة ، ومع ذلك كانت الملكة والجيش والشعب وكذلك النائب العام (إدوارد كوك) جميعهم يتعاطف مع الكونت إسكس ، ويودون لو خرج من المحاكمة بريئا ، وإنما دون اعتداء على الشرعية والقانون .

---

(١) قصة الفلسفة الحديثة ، د/ زكي نجيب محمود ، ط ١ سنة ١٩٣٦ م ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

وفي ذلك الوقت قام خصوم إسكس بندب صديقه بيكون من هيئة المحاماة الاستشارية لينظر القضية ، وكان في إمكان بيكون – وربما من واجبه – أن يتنحى عن نظر هذه الدعوى ، لا سيما وأنه قد سبق له محاولة الإصلاح بين إسكس والملكة ، كما سبق له محاولة إثناء إسكس عن التمرد ؛ ولكن بيكون قبِل نظر القضية ، وكان أقسى قضاة اللجنة تشددا ، فأعلن أول الأمر أن الوفاء عند رجل القانون هو وفاء للدولة والتاج ونبلاء البلاط ، ثم ترافع ضد إسكس طالبا توقيع الحكم الصارم عليه ؛ وقد بذل بيكون من الجهد والبراعة القانونية ما أبان عن تفوقه على النائب العام إدوارد كوك ، مما أدى إلى حصر التهمة في صديقه إسكس وإلى إدانته والحكم عليه " [1].

كما أن بيكون حينما كلفته الملكة بتسجيل محضر الدفاع في هذه الدعوى فإنه لم يتوان عن تشويه ذكرى صديقه ، (ففي الإعلان عن خيانات الكونت إسكس أعطى بيكون عن الراحل صورة حالكة السواد ، وتلك كانت وقيعة سيئة في حياة بيكون ، وقد حاول بعد ذلك أن يبرر سلوكه في دفاع أصدره بعد عام من وفاة الملكة " إليزابيث " ، فعزاه إلى مقتضيات وظيفته وإلى إخلاصه للعرش ؛ لكن ما كان لأي دفاع أن يغسل العار الذي ألحقه بنفسه عندما سخّر كافة إمكاناته وطاقاته للقضاء على وليّ نعمته ثم على سمعته ، وهكذا نرى العقل يتحول إلى أداة في خدمة القوة والسلطة ، لقاء نكران مخز للجميل والمعروف) [2] .

---

(١) فلسفة فرنسيس بيكون ، د/ حبيب الشاروني ، ص ٨ ، ٩ .

(٢) معجم الفلاسفة ، جورج طرابيشي ، ص ٢٢٧ .

ومن هنا نفهم ما صرّح به الشاعر الإنجليزي " بوب " عن بيكون بأنه " أحكم وأخسّ إنسان بين البشر" ؛ وقول البعض الآخر : " إن بيكون مسخ من الغدر والعقوق "[1] .

ولكن " برتراند رسل " يلتمس العذر لبيكون في هذا الصدد فيقول : " إن قد عمل مع إسكس حين كان إسكس مخلصا ، ولكنه تخلّى عنه حين كان استمرار الولاء معناه الخيانة ، وليس في هذا شيء يمكن أن يدينه حتى من أشد أخلاقيّ هذا العصر "[2] .

والحقيقة أن اشتراك بيكون في المحاكمة أفقده شعبيته مدة من الوقت ، ومنذ ذلك الحين بدأ يعيش في وسط من الأعداء يتربصون الفرص للإيقاع به والقضاء عليه ، كما أن طموحه الجشع لم يترك له وقتا للراحة ، ولم يكن قانعا أو راضيا أبدا عن حاله ، وبقي مبذرا ومسرفا ، تزيد نفقاته على دخله ، وكانت المظاهر بالنسبة إليه جزءا من السياسة ؛ وعندما تزوج في الخامسة والأربعين من عمره ، أنفق جزءا كبيرا من المهر – الذي تقدمه الزوجة عادة – على الاحتفال بزواجه ، واستمر في إسرافه وبذخه حتى زادت ديونه ، ثم ألقي القبض عليه لعجزه عن سداد ديونه ، (وعلى الرغم من ذلك فقد استمر في تقدمه واستطاع بفضل مواهبه وقدراته أن يصل إلى أعلى المناصب ، ففي عام ١٦٠٦ م عُين وكيلا للمدعي العام ، وفي عام ١٦١٦ م عُين مدعيا عاما ، وتدرج في المناصب إلى أن ظفر بوظيفة والده كحامل لأختام الملك ، ثم

---

(١) أعلام الفلاسفة ، هنري توماس ، ترجمة وتحقيق : متري أمين – زكي نجيب محمود ، ط ١ سنة ١٩٦٤ م ، دار النهضة العربية بالقاهرة ، ص ٢٠٥ .

(٢) تاريخ الفلسفة الغربية ، برتراند رسل ، ترجمة : د/ محمد فتحي الشنيطي ، ط ١ سنة ١٩٧٧ م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ، جـ ٣ ، ص ٨١ .

تــولى بعد ذلك أكبر منصب في الدولة وهو منصب رئيس القضاة ؛ وبعد أن شغل هذا المنصب لمدة عامين اتُهِم بالرشوة والفساد ، ورفعت القضية أمام مجلس اللوردات ، وحُركت ضد بيكون دعوة بالرشوة والاختلاس ونزولا عند رغبات الملك لم يحاول بيكون أثناء محاكمته تبرئة نفسه وتحميل رؤسائه وزر ما فعل ، بل اعترف جزئيا بأخطائه وطلب من المجلس أن يعامله برأفة ورحمة ، فحكُم عليه بغرامة مالية كبيرة ، وبالسجن لمدة تُــرِك تحديدها للملك ، وبالنفي عن البلاط الملكي ، وحرمانه من تولي المناصب العامة) [1] .

ثم جاء العفو الملكي فلم يقض بيكون في السجن سوى بضعة أيام ، ولم يدفع من الغرامة شيء ، ولكنه أُجبر على التخلي عن الحياة العامة ، والتفرغ لحياة البحث والتأليف .

وبعد مضي خمس سنوات توفي بيكون بعد إصابته بنزلة برد بينما كان يقوم بإجراء بعض التجارب التي تهدف إلى حفظ اللحم من التعفن ، وكان ذلك في التاسع من شهر إبريل سنة ١٦٢٦ م ، وهو في الخامسة والستين من عمره .

*****

(١) معجم الفلاسفة ، جورج طرابيشي ، ص ٢٢٧ .

المطلب الثاني
شخصيته وأخلاقه

ولعل في العرض السابق لمسار حياة بيكون ، واستقراء آراء العلماء فيه ، ما يكشف لنا الكثير من الحقائق عن شخصيته وأخلاقه ؛ أما عن شخصيته فقد وجدنا أنه شخصية مضطربة ، تضاربت الآراء في الحكم عليها ، فهو في نظر البعض أقدر عقلية أنجبتها العصور الحديثة ، ومصنفاته أعظم إنتاج للفكر الإنساني منذ عصر أرسطو ، وفلسفته قد حركت العقول التي حركت العالم .

ولكنه في نظر البعض الآخر أحكم وأخسّ إنسان بين البشر ، بل إن الأمر قد وصل ببعضهم إلى وصفه بأنه مسخ من الغدر والعقوق .

لقد انقسمت شخصية بيكون ما بين (الحكمة) و (السلطة) بشكل كبير ، لكنهما تعايشتا بشكل أو بآخر ، وإن تغلبت إحداهما على الأخرى حينا بعد حين ؛ ويؤكد بيكون ذلك حين يقول : " كنت أعتقد أني خلقت للقيام بخدمة البشرية .... وأخيرا أدركت الأمل الذي أستطيع أن أحققه إذا ما تربعت في منصب من مناصب الدولة السامية ، حيث يمكنني الحصول على معونة دائمة تعينني على أداء مهمتي المقدرة لي في حياتي " [1].

إن بيكون قد ترعرع في جو من شئون الدولة ، ولكنه مع ذلك كان رجلا بسيطا داخل جدرانه ، أما في خارجها فقد كان يبدي التصنع والتظاهر والتفاخر ، اعتقادا منه بأن ذلك من مقتضيات الشهرة العامة ؛ وهكذا نجد أن حياته بأكملها قد انطبعت بعاطفتين جامحتين : حب المعرفة – الذي ورثه عن

---

(١) الفلسفة والسلطة ومقالات أخرى ، علي فهمي خشيم ، ط ١ سنة ١٩٩٩ م ، دار الكتب الوطنية – ليبيا ، ص ٤١ .

والدته – والتعطش للسلطة – الذي ورثه عن والده – وقد طغتا على كيانه ، وجعلتا منه واحدا من أكثر وجوه التاريخ الحديث تعقيدا ، ومثالا على تقلبات الحظ الذي لم يبخل عليه لا بالنعم ولا بالخزي ، فخلال حياته وهو رجل سياسة وعيْن من أعيان البلاط ، نَعِمَ بالثروة والعزّ ، لكنه عرف – أيضا – ويلات الهزيمة ، وعار الاتهامات والافتراءات الحقيرة ، وهول البؤس والشقاء .

" وقد وجد في البحث والدرس سندا له وملاذا من العداوة التي استهدفته ، كما وجد في الحكم الإجماعي للتاريخ الفكري مصدر شهرة دائمة .

وهذه الازدواجية التي تسلط الأضواء على صروف حياة بيكون هي – أيضا – المفتاح لفكره ، فإذا كان حب المعرفة والطموح للسلطة قد تنازعا نفسه ، فإن هاتين العاطفتين الجامحتين قد انصهرتا في تصوره الفلسفي في توازن أسمى، تجد البشرية بمقتضاه في العلم أداة للظفر بالقوة والقدرة "[1] .

إن صعود بيكون إلى أعلى مناصب الدولة كاد أن يحقق أحلام أفلاطون عن الملك الفيلسوف ، لأن صعوده خطوة خطوة نحو مناصب السلطة السياسية جعله يمتطي ذرى الفلسفة بدرجة لا نكاد أن نصدق معها أن يكون هذا الإنتاج الغزير ، وتلك المعرفة والاطلاع العلمي الواسع الذي طبع حياة هذا الرجل ، نتيجة تسلية ولهو لحياة سياسية هائجة ومضطربة ، حتى أنه بعد ذلك لم يستطع اتخاذ قرار فيما إذا كان يفضل حياة التأمل والفكر ، أم الحياة الفعالة – السياسية – أكثر ؛ لقد كان يرجو أن يكون فيلسوفا وسياسيا ، مع أنه كان يرتاب في أن يؤخر هذا الاتجاه المزدوج – نحو الفلسفة والسياسة معا – وصوله إلى ما يبتغي ويقلل من بلوغه أهدافه ؛ وهو يكتب عن هذا الجمع بين السياسة والفلسفة فيقول : " إن من الصعب أن نقرر فيما إذا كان الجمع بين

---

(١) معجم الفلاسفة ، جورج طرابيشي ، ص ٢٢٦ .

التفكير والتأمل والحياة الفعالة يفيد العقل ويساعد على تقدم العلم ، أو أن الاقتصار – اقتصارا تاما – على حياة الفكر والتأمل يضعف العقل ويؤخره "[1]

لقد شعر بيكون أن الدراسة أو الحكمة ليست غاية في حد ذاتها ، وأن المعرفة إن لم تكن مقرونة بالعمل ليست سوى زهو وغرور علمي شاحب ، وعلى الرغم من أنه كان يرى في ميوله وطبيعته ما يربطه بالفلسفة ، إلا أن مولده وتربيته وثقافته قد اتجهت به نحو السياسة .

وهناك دافع آخر جعله يجمع بين السياسة والفلسفة ، وهو أنه قد أحب ثمرات الحياة الدنيا وزخارفها بنفس القدر الذي أحب به ثمرات الحقيقة المجردة ، بل ربما كان حبه لحياة الترف والرفاهية يفوق حبه لحياة البحث عن الحقيقة المجردة ؛ وهذا هو السبب في أن صعدت به السياسة إلى قمة المجد ، ثم هوت به إلى الحضيض .

وقد لاحظ بيكون نفسه – ولكن ربما بعد فوات الأوان – أن الإفراط في شهوة السلطان هو نتيجة للمعرفة القاصرة ، فحاول جاهدا أن يضع حدا وعلاجا لهذا ولكن دون جدوى ، إذ حال دون ذلك تربيته وثقافته ونشأته التي نشأ عليها وطموحه وشهوته للسلطة والمناصب .

يقول الدكتور/ محمود حمدي زقزوق : " لقد كان طموح بيكون لا حد لـــه ، وكانت الأنانية من الصفات البارزة في أخلاقه ، وقد أحسّ هو بالتناقض الذي يحيط بشخصيته ، ولذا نراه يقول : " في الفلسفة نتحادث مع الحكماء ،

---

(١) قصة الفلسفة ، ول ديورانت ، ص ١٣٨ .

أما في أعمالنا فنتعامل مع الحمقى " ، وقد أراد أن يحذو حذو الحمقى ويحيط نفسه بزخارف المجد والعظمة ، فسقط في النهاية سقطة لم يقم منها أبدا "[1] .

وهذا يبين كم كانت أخلاق بيكون مرزولة إلى حد بعيد ، فقد كان طموحا ودسّاسا ومستعدا لأن يتغير ويتلون حسبما تكون المنفعة ، ولكنه كان كذلك ذكيا ، فلم يسمح لنفسه التوسع في الزلفى للبلاط إلا بعد أن تولى مناصب القضاء ، وأصبح – بالتالي – منفردا فيها برأيه ، في حين كان في مجلس النواب مقيدا بأصوات غيره من النواب .

أما فيما يختص بمشاريعه السياسية فكانت تتجه إلى التقريب والتوفيق بين الشعب والملك ، وبين المجلس البلاط .

يقول الدكتور / محمد غلاب : (لقد كان بيكون شديد الشغف بالمال والجاه والسلطة ، فقد صمم على أن يسلك لتحقيق رغباته جميع الوسائل ، رفيعها ووضيعها ، وأن يستهين بالفضائل الأخلاقية جميعها في سبيل تحقيق غاياته ، ولكي يعتذر عن تلك الدنايا التي هوى فيها أعلن أنه ما بحث عن المال والسلطان إلا لتحقيق المشروع العلمي الذي كان يفكر فيه منذ زمن طويل ، ولما كانت الغاية – في رأيه – تبرر الوسيلة ، فلم يكن من العدالة أن يؤخذ عليه شيء من المخالفات الأخلاقية) [2].

وهذا المبدأ – الغاية تبرر الوسيلة – هو ما جعله يستبيح كل شيء للوصول إلى ما يصبو إليه ، وأفرغ جميع جهوده في العمل على إنجاحها دون

---

(١) دراسات في الفلسفة الحديثة ، د/ محمود حمدي زقـزوق ، ط ٣ سـنة ١٩٩٣ م ، دار الفكر العربي بالقاهرة ، ص٣٣ .

(٢) المذاهب الفلسفية العظمى ، د/ محمد غلاب ، ط ١ سـنة ١٩٤٨ م ، دار إحيـاء الكتب العربية بالقاهرة ، ص ٤٧ .

إلتفات إلى ما عداه ، وهو في هذا يقول : (إن أفضل الأخلاق ينحصر في أن يفوز المرء باشتهاره بالصراحة في الظاهر ، ولكنه يكون من المهارة بحيث يستطيع أن يعمل في الخفاء ، وأن يعرف كيف يموه عندما يكون التمويه ضروريا) [1].

وهكذا فقد قـــاده كلفه بالثروة والجاه إلى طريق خاطيء ، كثير المتاعب ، مليء بالأشواك ، أوقفه مواقف حرجة ، أفسدت خلقه ، وانتهت به إلى الشقاء .

وعلى الرغـــم من ذلك كله فقد بقى اسم " فرنسيس بيكون " في التاريخ ، وقدرت الأجيال جهوده الفلسفية ، وتحقق بذلك ما قاله في وصيته الأخيرة : " إنني أوصي بأن يدفن جسدي في طي الخفاء ، مودعا روحي بين يدي الله ، أما اسمي فإني باعث به إلى سائر الأمم والعصور " .

ولعل في هذا التضارب الذي أحاط بشخصية " فرنسيس بيكون " ما يصدم الحِسّ الفلسفي لدى باحثي الفلسفة وطلابها ، ويحطم في نفوسهم تلك الصورة المثالية للفيلسوف الذي يفترض فيه أنه راهب في معبد الحقيقة ، ولكننا – دون أن ندافع عن بيكون وعن طموحاته الدنيوية – لا ينبغي أن ننسى أن طريق الانغماس في السياسة طريق غير مأمون العواقب ؛ وفضلا عن ذلك فإنه بشر له أخطاؤه ونزواته ، وله – أيضا – جوانبه الإيجابية التي لا ينبغي أن ننساها .

*****

(١) المرجع السابق ، ص ٤٨ .

المطلب الثالث
مصنفاته

في غمرة هذه الحياة الحافلة بالشواغل الدنيوية ، إلا أن بيكون قد تابع خلال تلك السنوات أبحاثه العلمية كما تشهد على ذلك مؤلفاته العديدة .

ولقد ندم بيكون على ضياع الكثير من وقته وجهده في الجري وراء المال والسلطة ، في حين أنه لم يكن يخصص من وقته للجانب العلمي في حياته إلا أقل القليل ؛ ومع ذلك فإن مصنفاته – التي يعتبرها هو أنها أجزاء مبتورة وغير مكتملة – تمثل – على حد قول هنري توماس – ما يمكن أن يوصف بـــأنه " أعظم إنتاج للفكر الإنساني منـــذ عصر أرسطو حتى أيام بيكون ، وقد بلغ عدد مصنفاته الكثير ، تناول فيها جميع جوانب الأدب والعلوم والفنون تقريبا " (١).

ورغم هذه الحياة المضطربة التي عاشها بيكون إلا أنه لم يكف خلالها عن معالجة مشروع عرض له وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، وهو إصلاح العلوم بالاعتماد على الطريقة الاستقرائية دون الطريقة القياسية ؛ وفي ذلك يقول الدكتور/ يوسف كرم : " ونحن لو نظرنا إلى إنتاجه في جملته لوجدنا أنه يتميز بمظهر فريد ، ذلك أنه كان لديه منذ زمن مبكر تصور عن مؤلَّفه في مجموعه ، وهو الذي أطلق عليه بعد ذلك باللاتينية instauration Magna أي الإحياء العظيم " (٢).

---

(١) أعلام الفلاسفة ، هنري توماس ، ص ٢٠٤ .

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ، يوسف كرم ، ط ٥ بدون تاريخ ، دار المعارف بالقاهرة ، ص ٤٤ ، ٤٥.

ومنذ أرسطو كانت المعرفة تُطلب لذات المعرفة ، لكن بيكون كان يرى أن " المعرفة قوة " ، فهي ليست فكرة نتمسك بها ، وإنما هي عمل يتحتم علينا إنجازه، فهو يضع الأساس لا لمذهب أو لمبدأ ، وإنما لفائدة عملية ، وقوة لها أثرها في حياة الناس وتقدمهم .

" والعنوان ذاته الذي وضعه بيكون لمؤلَّفه يكشف عن طموح بيكون في مجال المشروعات العلمية ، وخطة هذا الإحياء العظيم قد وردت في مقدمة كتابه "الآلة الجديدة "،أو الأورجانون الجديد ، الذي يشكل أحد أجزاء الإحياء العظيم" (١).

كما كان بيكون يفكر بإستمرار – حتى في أيام نجاحه السياسي – في إعادة بناء الفلسفة وتجديدها ، وعقد العزم على أن تكون هذه المهمة هي محور دراسته؛ ولكن العمل الرئيسي الذي كان بيكون يود إنجازه لم يكتمل ، ولم يكن له أن يكتمل أيضا ، لأن الخطة التي وضعها كانت عملاقة ، تفوق طاقة أي فرد مهما يكن متفرغا ، فكيف وبيكون لا يجد إلا القليل من وقته ينفقه في سبيل العلم والفلسفة ، هذا بالإضافة إلى كونه لم يكن يقنع بشيء أقل من التجديد الشامل للعلم في جوانبه كلها .

يقول الدكتور/ محمود حمدي زقزوق : " وقد كانت الخطة التي وضعها بيكون لنفسه تتضمن النقاط التالية :-

أولا : الكشف عن أسباب توقف العلم وجموده منذ عصر اليونان .

ثانيا : وضع تصنيف جديد للعلوم وتحديد مجالات عملها

ثالثا : وضع منهج جديد لتفسير الطبيعة .

---

(١) أعلام الفلسفة الحديثة ، د/ رفقي زاهر ، ط ١ سنة ١٩٧٩ م ، مكتبة النهضة بالقاهرة ، ص ١٥.

رابعا : الاهتمام بالعلوم الطبيعية الحقيقية ، والبحث في جزئياتها وفي ظواهرها الطبيعية .

خامسا : رسم صورة لمدينة العلم الفاضلة التي يتخيلها لإسعاد البشرية "[1].

ولم يتم بيكون من مشروعه العلمي الضخم الذي أطلق عليه اسم " الإحياء العظيم " إلا ثلاثة جوانب فقط ؛ وهي :-

١- في قيمة العلوم ونموها ، وقد تضمن نقدا لأوضاع العلوم آنذاك ، وتحدّث فيه عن تقسيم جديد للعلوم ، كما ألقى نظرة على النتائج المستقبلية لهذه العلوم .

٢- الأورجانون الجديد (Novum Organon) : وقد عرض فيه منهجه العلمي الجديد الذي عارض به منهج أرسطو

٣- أطلانتس الجديدة : وهو من أهم مؤلفاته حيث يحتوي على الجزء الأكبر من فلسفته السياسية ، وقد أراد به بيكون أن يكون على نسق المدن الفاضلة، وأورد فيه إشارات عن كثير من المخترعات العلمية التي جاءت بعد ذلك بزمن طويل .

(ولم يقتصر بيكون على هذا الإنتاج العلمي ، وإنما له كتب أخرى في الأدب والتاريخ والقانون ، وكتابه " المقالات " يجعل منه الرائد الأول في هذا الفن في إنجلترا ؛ وله أيضا : في حكمة الأقدمين (١٦٠٩ م) ، التفنيد الفلسفي (١٦٠٩ م) ، مقدمات للتاريخ الطبيعي والتجريبي (١٦٢٠ م) ، في كرامة العلوم ونموها (١٦٢٣ م) [2].

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ، د/ محمود حمدي زقزوق ، ط ٥ ، بدون تاريخ ، دار المعارف بالقاهرة ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) فلسفة فرنسيس بيكون ، د/ حبيب الشاروني ، ص ١٢ ، ١٣ .

هذا النشاط العلمي الفلسفي الأدبي التاريخي هو نشاط المبشر بالروح الجديدة ، وبالعصر الجديد ؛ وقد كان بيكون يقول عن نفسه أنه (Herald) أي المنادي ، أو نافخ البوق ، الذي يدعو الجماهير للإستماع لرسالته وما تحمل من أنباء عظيمة عن المستقبل .

والواقع أننا لو نظرنا فيما قام به بيكون بالفعل من أعمال في مجال العلم والفلسفة ، وفيما كتبه في هذا المجال – أيضا – لتجلّت لنا موهبته السياسية والفلسفية العلمية .

*****

المبحـث الثاني
فلسـفتـه السيـاسيـة

إن فلسفة بيكون السياسية تظهر منثورة في كثير من مؤلفاته ، ولكنها تبدو بوضوح أكثر في مؤلفين ، هما :- المقالات ، أطلنتس الجديدة .

أما " المقالات " فقد نشره أول مرة عام ١٥٩٧ م وبه عشر مقالات ، ثم أعاد طبعه عام ١٦١٢ م وبه ثمانية وثلاثون مقالة ، ثم أعاد طبعه بعد التنقيح والزيادة وبه ثمانية وخمسون مقالة .

وأما " أطلنتس الجديدة " فيحتوي على معظم فلسفة بيكون السياسية ، وقد حرره على الأرجح عام ١٦٢٤ م ، ونشره الدكتور/ رولي عام ١٦٢٧ م بعد وفاة بيكون ، وقد أراد به بيكون أن يكون على نسق " يوتوبيا " ، فجعله بمثابة مشروع عن تنظيم أو منظمة للأبحاث العلمية ، وأطلق عليه في مدينته اسم" بيت سليمان "، تلك المدينة التي تصورها بيكون برئيسها وحكومتها وجنودها وشعبها ..... هو الذي تتحقق فيه المدينة الفاضلة المثالية .

وقد كان لفلسفة بيكون السياسية أسس وعوامل مهمة شكّلت الأرضية التي قامت عليها فلسفة بيكون السياسية ووجّهتها وجهتها الخاصة ، هذه العوامل بعضها أعطى بيكون الخيوط الرائدة في فلسفته السياسية ، وبعضها أعطاها مِزاجا تتكون في ضوئه هذه الخيوط ؛ كل هذا سنتعرف عليه من خلال هذا المبحث .

المطلب الأول
المقالات

إن صعود بيكون إلى أعلى مناصب الدولة أوشك أن يحقق أحلام أفلاطون عن الملك الفيلسوف ، لأن صعوده خطوة خطوة نحو السلطة السياسية جعله يمتطي ذرى الفلسفة ، ومقالاته الأدبية تظهره أنه لا زال حائرا ومُشتّتا بين وجهتين محببتين لديه ، حبه للسياسة وحبه للفلسفة ، ولعل في هذا ما يؤكد على أن مصنفاته الكثيرة ، والاطلاع الواسع الذي طبع حياة هذا الفيلسوف لم تكن نتيجة تسلية ولهو لحياة سياسية هائجة ومضطربة .

وبالبحث والدراسة لفلسفة مقالاته نجد أنها تنزع إلى الميكافيلية أكثر منها إلى المسيحية ، فهو يقول : " إننا مدينون بالفضل إلى ميكافيللي وأمثاله من الكُتّاب الذين أعلنوا بوضوح وبغير تستّر أو التواء عما يفعل الناس ، لا عما ينبغي أن يفعلوه ، لأن من المستحيل أن تجمع بين حكمة الثعبان وبراءة الحمام من غير معرفة سابقة بطبيعة الشر نفسه ، إذ بدون ذلك تبقى الفضيلة مُعرّضة بلا حراسة أو حماية " (١).

كما أن فلسفة بيكون السياسية – كما تظهر في مقالاته – محافظة جامدة ، وهذا أمر طبعي من شخص يطمع في الوصول إلى مناصب سياسية كبيرة ، ويعيش في عصر محافظ متزمت ، لأن التطرف في الآراء السياسية في مثل هذه الظروف يعني التضحية بمطامحه السياسية ؛ ولهذا نراه يؤكد فكرة حكومة مركزية قوية ، والملكية – في نظره – هي أفضل أنواع الحكومات ؛ ثم هو يقول بوجود أعمال ثلاثة في الحكومة هي : التحضير والإعداد ، والنقاش والفحص ، والكمال أو التنفيذ ، وينبغي أن تُترك المرحلة

---

(١) المذاهب الفلسفية العظمى ، د / محمد غلاب ، ص ٤٨ .

الثانية – وهي النقاش والفحص – في يد الأكثرية من الشعب ، أما التحضير والإعداد – وهي المرحلة الأولى – والكمال – وهو المرحلة الأخيرة – فيجب أن تُترك في أيدي القِلّة ؛ وهو بهذا الرأي صريح في ميوله العسكرية .

ويشترط بيكون لرفعة الدولـــــة أن تأخذ بكل أسباب العلم والفلسفة ، ثم يؤكد على شرط آخر لقيام الدولة ورفعتها وقوتها ، وهو القوة الحربية العسكرية ، فيقول : " إن النقطة الرئيسية في عظمة أي دولة هي أن يكون الجنس البشري فيها عسكريا ، ولكي يكون الشعب عسكريا لا ينبغي أن يثقل بالضرائب ، ولا ينبغي كذلك أن يتزايد في العدد فيتحول المالك إلى مستأجر .

وحين تتحول الدولة إلى إمبراطورية عليها أن تمنح الأجانب حق المواطنة، فيشتركون في الانتخابات ، ويتقلدون الوظائف العليا ، وبذلك تتحول المستعمرات إلى أجزاء أصيلة من الإمبراطورية ، تدخل في جسمها ويكتسب رعاياها جنسية البلد " (١).

كان بيكون لا يريد ألا تبقى المستعمرات غريبة كالفروع والأغصان التي تثقل الشجرة فتجعلها تسقط ، أما الأعمال التي لا تتلاءم مع الروح الحربي ، وهي فلاحة الأرض والخدمة ولحرف اليدوية كالحدادة والنجارة والبناء ، فقد رأى بيكون أن يعهد بها إلى العامة من الأهالي ؛ فإذا ما تهيأت ظروف الدولة على هذا النحو وجب عليها أن تتجه نحو الحرب .

وبيكون صريح غاية الصراحة في دعوته للحرب وإدانته للسلام الطويل الذي من شأنه أن يقتل في الناس الروح الحربي ، لذا نجده يقدم العديد من المبررات التي يرى أنها تدعو لإعلان الحرب ، فينبه إلى قيمة المعارك

---

(١) فلسفة فرنسيس بيكون ، حبيب الشاروني ، ص ١٠٧ .

الحربية ، وكيف أنها تحدد مصائر الدول ، كما ينبه على أثر كل من البارود والبوصلة في المعارك الحربية .

وقد اجتمعت كل الملابسات التي رأيناها في حياة بيكون لتجعل منه ملكيّا مؤمنا بالحكومة المركزية القوية ، وبأن على رأس الدولة يلزم أن يقوم ملك حكيم ، لذا نجده حين يتحدث عما ينبغي أن تكون عليه حكمة الملك ينبه إلى أن " من أخطر ما يهدد سلطة الملك هو التنقل بين التشدد الطاغي والتساهل المفرط ، فالحكمة تكون في الجمع بينهما ، فتُمارس السيادة من قِبَل الملك ويتمتع الشعب بالحرية " (١).

ثم يمضي بيكون فينبه الملك إلى مختلف المصادر التي يمكن أن يأتي منها الخطر ، (فهناك البلاد المجاورة إذا زادت قوتها ، وهـــناك حاشية الملك وأقاربه ابتداء من الزوجة والأبناء ، وهناك رجال الدين ، والنبلاء ، والتجار ، والشعب ، والجنود ، فكل فئة من هؤلاء يمكن أن يكون مصدرا للمتاعب بشكل أو بآخر ، وكل فئة من هؤلاء ينبغي على الملك أن يراعي بإزائها مـــا يجعلها أن تعود عليه بالفائدة لا بالخطر عليه) (٢) .

ومع قيام الملك على رأس الدولة ، وأخذه بأسباب العلم ، تجيء الضرورة هنا في أن يلجأ إلى المستشارين ، وليس في ذلك أي انتقاص من قدره .

ويقدم بيكون في واحدة من مقالاته نصائح لتجنب الثورات فيقول : " إن الثورات أو الفتن يسبقها ما ينذر بقرب اشتعالها ، فالإشاعات الكاذبة ، والأحاديث التي تطعن في الدولة لا تجيء في أعقاب الفتن فحسب ، وإنما

---

(١) فلسفة فرنسيس بيكون ، حبيب الشاروني ، ص ١٠٩ .

(٢) قصة الفلسفة الحديثة ، د/ زكي نجيب محمود ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

تجيء كذلك قبلها لتنذر بقرب حدوثها ، وحين تكون الحكومة غير شعبية تكون أعمالها الحسنة والسيئة – على السواء – فالسيئة لإنها كذلك ، أما الحسنة فلأن الناس تغير معناها وتجعله سيئا ، ولن يكون منع الثورات وتجنب الفتن بالقمع واستخدام القسوة في القضاء على الإشاعات التي تنذر بها ، فالقسوة هنا غير مجدية ، وإنما العلاج الأفضل هو إغفال الإشاعات وإهمالها ؛ ولا ينبغي على الحاكم أن يؤيد طائفة أو فئة دون أخرى "[١] .

ثم يقول بيكون " إن العُمَد التي ترتكز عليها الحكومة أربعة : الدين ، والعدالة ، والشورى ، والثروة ؛ إذا اهتز أي منها كان هذا إنذار بالإضطرابات والفتن " [٢].

ويمضي بيكون ليبين لنا أن ما يشعل الثورات هو الفقر الشديد والسخط الشديد ؛ وعلى الحاكم أن يعلم أن العامة لا تلجأ لمنطق العقل حين تشتد بها الحاجة .

أما الأسباب المباشرة للثورات فهي : " البدع الدينية ، والضرائب ، وتغيير القوانين والعادات ، وتحطيم الامتيازات ، والظلم على نطاق واسع ، وترقية الأشخاص الذين لا يستحقون الترقية ، والأجانب ، والمجاعات ، والجنود المسرّحون ، والنزاع الذي يبلغ حدّ التهوّر والشغب ، وكل ما يسيء إلى الناس فيزيد من توحيدهم وتوحيد هدفهم .

وعلى الحاكم إذا أراد أن يتجنب الثورات والقلاقل أن يعمل قبل كل شيء على تجنيب الشعب الفقر والحاجة ، والسبيل إلى ذلك هو مراعاة

---

(١) مقال في الثورات والاضطرابات ، ضمن مؤلفات فرنسيس بيكون الفلسفية ، ترجمة د/ حبيب الشاروني ، طبعة دار الثقافة بالمغرب سنة ١٩٨١ م ، ص ٧٥١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٧٥٢ .

الميزان التجاري، فلا تستورد الدولة بأكثر مما تصدر ، والنهوض بالصناعة والقضاء على البطالة ، وضغط المصروفات بواسطة القوانين ، وتحسين وسائل الزراعة ، وتحديد أسعار السلع ، والاعتدال في فرض الضرائب "[1] .

ويذكر بيكون كذلك مشكلة زيادة السكان عن موارد الدولة ، ولكنه ينظر إليها من منظور طبقي خاص ، (حيث إنه لا يريد لثلاث طبقات أن يزيد عددها ، وهي طبقة النبلاء ، وطبقة رجال الدين ، وطبقة ذوي المناصب الرفيعة من المتعلمين .

ويأتي ثراء الدولة من مصادر ثلاثة : بيع السلع والمنتجات الطبيعية ، والصناعة ، والنقل ؛ كما أن الثروة لا ينبغي أن تتراكم في أيدي القلة ، بل يجب التوزيع العادل للثروة والمال ، وذلك بتدخل الدولة وتقييدها لسعر الفائدة والاحتكارات والمراعي) [2] .

وإذا كان السخط هو جوهر الثورات والقلاقل فإن خطر هذه يكون أشد إذا شاع السخط بين الطبقتين العليا والدنيا معا ، فالطبقة الدنيا وحدها بطيئة الحركة ، أما الطبقة العليا فلا تستطيع أن تثير الفتن أو تدعو للثورات إلا إذا استخدمت الطبقة الدنيا التي سرعان ما تستجيب للثورة إذا كانت ساخطة على سلطة الحاكم ؛ وهنا نجد بيكون يدعو الحاكم إلى امتصاص غضب الناس ، فيقول : " وعلى الحاكم إذا لم يستطع إرضاء الناس بتلبية احتياجاتهم أن يرضيهم بإعطئهم الآمال الكاذبة ، وعليه أن ينتقل بهم من أمل إلى أمل ، وألا يفلت منه في خطبه وأحاديثه ما يُفقِد الناس هذا الأمل " [3].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٥٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٥٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٥٥ .

وإذا كان بيكون يتحدث إلينا من القرن السابع عشر الميلادي ، إلا أننا نجده يتحدث عن كل عصر يتبع الميكافيللية ، وعن كل حاكم يريد أن يحتفظ بمكانه في الحكم ؛ وإذا كان يقول بأن أفضل وسيلة لتجنب الثورات هي التوزيع العادل للثروة والمال ، فإن هذا لا يعني الاشتراكية أو الديموقراطية ، لأن بيكون لا يثق بالشعب الذي كان محروما من التعليم في أيامه .

ولإيمان بيكون بأن الفلسفة وحدها تستطيع إدخال السلام الجليل الناجم عن الفهم إلى الحياة الحزينة المضطربة ، لذا فهو يرى أن الحكومات كالعلم تماما تعاني كثيرا من افتقارها إلى الفلسفة ، حيث إن ارتباط الفلسفة بالعلم وعلاقتها به هو نفس ارتباط إدارة الدولة بالسياسة وعلاقتها بها ، وكما تحول البحث عن المعرفة إلى علم اللاهوت عندما انفصل عن حاجات الناس والحياة الحقيقية ، كذلك أصبح السعي نحو السياسة جنونا مهلكا عندما انفصل عن العلم والفلسفة ؛ لذلك كان من الخطر الكبير أن يدير شئون الدولة وأمورها الدجالون من رجال السياسة، على أساس عدم استفادتهم من التجارب واكتساب الخـــبرة أثناء الحكم ، إلا إذا امتزج هؤلاء بالرجال الراسخين في العلم ؛ وهو هنا يؤكد ما قد سبق وأشار إليه من قبل ، فيقول : " ..... وقد يتهم من قال بوجوب حكم الفلاسفة للدول بالتحيّز والمحاباة ، مالم يتحول الفلاسفة إلى ملوك ، والملوك إلى فلاسفة ، ومع ذلك فقد أثبتت التجارب أن أفضل الحكومات هي التي قامت في عهد أمراء حكماء عقلاء متعلمين ..... " [1].

---

(١) الفلسفة الحديثة ورؤية جديدة ، د/ نازلي إسماعيل حســن ، ط ١ ســنة ١٩٧٩ م ، مكتبة الحرية بالقاهرة ، ص ٢٠١ .

وهكذا نجد بيكون مثل أفلاطون يعظم من قدر الفلسفة ويعتبرها منجاة وخلاصا للإنسان ، إلا أنه أدرك بوضوح أكثر من أفلاطون وجه الحاجة إلى أخصائيين في العلم ، وإلى متخصص عسكري بين الجنود والجيش .

وهذه الآراء في مجملها تعبّر عن وجهة نظر بيكون السياسية ، فهو لا يريد أن تسود المساواة بين الناس جميعا ، ويقترح أن يُمنح المزارعون ملكية أراضيهم، ثم يقوم على رأسهم حكومة أرستقراطية تدبر شئونهم ، ثم يحكم هؤلاء وأولئك جميعا ملك فيلسوف ، حيث إن النجاح – كما صرح قبل ذلك – كان حليف جميع الحكومات التي حكمها الفلاسفة المتعلمون .

هذه هي مجمل فلسفة بيكون السياسية كما وردت في مقالاته ، وسوف نجد بعض التناقض والاختلاف بين ما صرّح به هنا في مقالاته ، وبين ما سيصرح به – بعد قليل – في مدينته – أطلنتس الجديدة .

المطلب الثاني
أطلنتس الجديدة

ليس هناك شيء أكثر أهمية ، ويستحق التطرق إليه – من وجهة نظر فرنسيس بيكون – من مشكلة الفلسفة السياسية ، أي طبيعة الدولة المثالية ، أو شكل الدولة ، وبصورة أكثر دقة " الشيء النفيس بصورة كبيرة على الأرض هو نتيجة تقابل ذهن الإنسان مع طبيعة الأشياء ، وهذا التقابل يحدث بحق عندما يستطيع عقل الإنسان أن يقهر الطبيعة لكي يجبرها على الخضوع للجنس البشري الأكثر كمالا ، أي الدولة التي يقدمها بيكون بصورة موجزة في كتاب " أطلنتس الجديدة " ؛ وعلى الرغم من أن هذا الكتاب هو العمل السياسي الأكثر أهمية لبيكون ، فإننا لانستطيع أن ندرك أهميته إلا إذا أدركنا أن الأمور السياسية تعني بالنسبة له أكثر مما هو مفترض عادة " [1].

لقد كان بيكون يرى أن كل ما أحرزته العلوم حتى وقته لا يعدو أن تكون دوامة تدور حول نفسها ، وعاصفة مثيرة دائمة تنتهي من حيث بدأت ، كما كان يفكر طيلة حياته – حتى في أيام نجاحه السياسي –في إعادة بناء الفلسفة وتجديدها، واعتزم على تركيز دراسته حول هذه المهمة ، فهو – كما أشرت سابقا – يخبرنا في خطة أعماله أنه سيكتب أولا بعض المقدمات في كتب صغيرة ، يفسر فيها أسباب ركود الفلسفة بسبب التشبث بالوسائل القديمة ، ويلخص فيها اقتراحاته لبداية جديدة ، كما يحاول – ثانيا – وضع تصنيف جديد للعلوم ، مضيفا لها موادها ، ومبينا المشاكل التي لم يتوصل إلى

---

(١) تاريخ الفلسفة السياسية ، ليوشتراوس – جوزيف كروبسي ، ترجمة : محمود سيد أحمد ، تقديم : د/ إمام عبدالفتاح ، طبعة المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة سنة ٢٠٠٥ م ، جـ ١ ص ٥٣١ .

شرحها أو حلها في كل ميدان ، ويضيف – ثالثا – طريقته الجديدة في تفسير الطبيعة ، ورابعا : يأتي على العلوم الطبيعية الحقيقية ، ويبحث في ظواهرها ، وخامسا : يظهر سلم العقل الذي تسلقه الكُتّاب السابقون في طريقهم نحو الحقائق التي تأخذ شكلها الآن منذ القرون الوسطى ، وسادسا : نجده يتوقع الوصول إلى نتائج علمية معينة كان على ثقة من الوصول إليها بفضل استخدام طريقته .

وبإتقان العلم والوصول به إلى مرتبة الكمال بهذه الطريقة التي شرحها بيكون ، وبإتقان النظام الاجتماعي نكون قد وضعنا العلم تحت سيطرتنا وإشرافنا ، وبذلك فهو يصل أخيرا إلى صورة المدينة الفاضلة التي يتخيلها لإسعاد البشر ، والتي ستزدهر في هذه البراعم العلمية التي كان يرجو أن يكون نبيا لها ، والتي تشكل جميعها البناء الجديد للفلسفة .

وبالرجوع قليلا إلى الوراء ، حيث محاورات أفلاطون ، وعلى وجه الخصوص " محاورة طيماوس " ، التي كتبها أفلاطون في أخريات حياته يأتي ذكره لأسطورة " أطلنتس القديمة " باعتبارها قارة غارقة في البحار الغربية ، كما كان أفلاطون قد رسم لنا من قبل مدينة مثلى في " الجمهورية " ، حيث الحكام فلاسفة ، لأن الفيلسوف وحده يعلم الخير ويريده ، ويستطيع أن يتصور القوانين العادلة تصورا علميا .

وفي عصر بيكون ظهر كتاب الراهب الدومانيكاني " تومازو كمبانيلا " بعنوان " مدينة الشمس " يعرض فيه فلسفته السياسية ، فينظم المجتمع وفقا لأصول العلم بحيث يتولى الحكم أفضل من برعوا في العلم النظري والعلمي معا

وعلى نفس النحـــو وضع بيكون كتابا في فلســـفة السياســـة ، أطلق عليه " أطلنتس الجديدة " ، وقد حرّره على الأرجح عام ١٦٢٤ م ، ونشره الدكتور/ " رولي" عام ١٦٢٧ م في مجلد يحوي كذلك كتاب " غاية الغايات " ،

وذلك أن كتاب "غاية الغايات " الذي يتناول فيه بيكون دراسة التاريخ الطبيعي هو بمثابة التمهيد اللازم لإمكان قيام المدينة المثالية الفاضلة التي يتخيلها بيكون ويرسم لنا سياستها في " أطلنتس الجديدة " .

وإذا كان التمهيد ذاته لم يكتمل لأنه ينقصه الكثير من التاريخ الطبيعي الذي يحتاج جمعه إلى أجيال متتالية ، فضلا عن عدم اكتمال " الآلة الجديدة " وهي التي سوف توفر المنهج لهذا الجمع وتلك الدراسة ، فإن " أطلنتس الجديدة " كذلك لم يكتمل ؛ بيد أن ما وصلنا منها يكفي لإعطاء صورة كاملة عن فلسفة بيكون السياسية ، والمجتمع الـــذي تخيله لإسعاد البشرية ، حيث يكون فيه للعلم والعلماء المكانة الأسمى .

(وقد صوّر بيكون في هذا الكتاب جماعة يسيطر عليها العلم ، تسكن جزيرة نائية في أقصى المحيط الهاديء ، أطلق عليها اسم " أطلنتس " ، وقد أوحت له بفكرتها قارة أمريكا التي اكتشفها " كريستوف كولمبوس " عام ١٤٩٢ م، وأطلق عليها " الجديدة " تمييزا لها عن " أطلنتس القديمة " لأفلاطون) [١].

والحكومة في أطلنتس الجديدة تتألف من الصفوة المختارة التي شغلت مناصبها بفضل تفوقها العلمي في شتى فروع العلم والمعرفة ، فليس رجالها رجال حرب أو رجال سياسة ، ولكنهم مجموعات من العلماء ، تختص كل مجموعة بعمل معين من أعمال البحث العلمي ، فمجموعة وظيفتها جلب الكتب والتجارب من البلدان الأخرى ، وأخرى وظيفتها جمع التجارب من الكتب ، وثالثة وظيفتها جمع تجارب الفنون الآلية والعلوم العقلية ، ورابعة تجري

---

(١) المدينة الفاضلة عبر التاريخ ، ماريـــا لـــويز ابرنيـــري ، ترجمـــة : د/ عطيـــات أبوالسعود ، طبعة سلسلة عالم المعرفة بالكويت سنة ١٩٩٠ م ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

تجارب جديدة ، وخامسة تُصنف التجارب لتستخرج منها الملاحظات والمبايء ، وسادسة تنظر في التجارب وتسعى لأن تستخلص منها ما ينفع الإنسان وما يفيد في العمل أو في البرهنة ووسائل المعرفة الطبعية ، كما تخطط للكشف عن خصائص الأجسام وأجزائها ، ثم تنعقد اجتماعات ولقاءات تضم هؤلاء جميعا لتنظر في كل ما تم جمعه وعمله ، لتأتي مجموعة سابعة وتستخلص من كل ذلك تجارب جديدة أكثر نفاذا إلى الطبيعة وإيضاحا لها ؛ وهذه التجارب تقوم بإجرائها مجموعة ثامنة وتقدم التقارير عن مكتشفاتها ، لتأتي أخيرا المجموعة التي تستخرج من هذه المكتشفات – بما تجريه أيضا من تجارب – الملاحظات والمباديء التي تفسر الطبيعة .

وكما تختلف حكومة أطلنتس من حيث تشكيلها عن أية حكومة أخرى ، فإنها تختلف عنها كذلك من حيث الغاية التي ترمي إليها والتي تكونت من أجل تحقيقها ؛ إن أهـداف هذه الحكومة هي معرفة علل الأشياء وحركاتها الغامضة ، وتوسيع حـــدود مملكة الإنسان ليمتد تأثيره إلى كل الأشياء الممكنة [1] .

وهذه الأهداف التي تميز حكومة أطلنتس الجديدة عن غيرها من الحكومات تلخص لنا – في الوقت ذاته – فلسفة بيكون السياسية ، والتي يسعى من خلالها إلى توسيع وفرض سيطرة الجنس البشري على الكون وما فيه .

هذه الحكومة التي تختلف في شكلها وهدفها عن غيرها من الحكومات ليست إذن حكومة سياسية ، وهي حين تحققت بالفعل على نحو قريب مما تخيله بيكون جاءت في صورة جمعية علمية ، هي الجمعية العلمية البريطانية

---

(١) فلسفة فرنسيس بيكون ، حبيب الشاروني ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

التي تأسست في انجلترا عام ١٦٤٥ م ، فما قامت به هذه الجمعية من أعمال جماعية إنما هو تحقيق فعلي لمشروع بيكون الذي تخيله في أطلنتس الجديدة

وقد أطلق بيكون على المقر الذي يضم هذه الحكومة اسم " بيت سليمان " ، وقد وصفه بيكون وصفا بليغا إلى الحد الذي أرغم الكاتب الانجليزي " ماكولي " الذي كان من أعنف من نقدوا بيكون إلى قوله : " لا نجد مقطعا أكثر عمقا وحكمة وبروزا من المقطع الذي وصف فيه بيكون بيت سليمان " (١).

كما أن " بيت سليمان " في " أطلنتس الجديدة " بمثابة البرلمان في لندن وهو مقر حكومة الجزيرة ؛ ولكن هذا البيت لا يضم سياسيين منتخبين ولا أحزابا، ولا يعرف لغوا ولا نفاقا ، ولا اجتماعات سياسية ، ولا انتخابات أولية ، ولا مؤتمرات ولا حملات سياسية ، ولا شارات حزبية ، ولا خطب سياسية ، ولا نشرات ومطبوعات توزع على الناخبين ، لأن فكرة شغل المناصب وملئها بمثل هذه الوسائل لم يفكر بها أبدا سكان جزيرة أطلنتس ، ولكن الطريق إلى أوج الشهرة العلمية مفتوحة أمام الجميع ، وأولئك الذين اجـــتازوا الطريق بفضل مواهبهم ومؤهلاتهم العلمية يجلسون في مجالس الدولة ؛ هذه الحكومة – كما عبّر عن ذلك بيكون في كتابه – هي : " حكومة الشعب للشعب ، تديرها الصفوة المختارة من الشعب ، وهي حكومة يتولى أمـــورها الفنيون والمهندسون المعماريون، والفلكيون ، وعلماء طبقات الأرض ، والأطباء ، والكيميائيون ، ورجال الاقتصاد ، وعلماء الاجتـــماع ، وعلماء النفس والفلاسفة .

---

(١) قصة الفلسفة ، ول ديورانت ، ص ١٧٣ .

والواقع أن هؤلاء الحكام مشغولون في بسط نفوذهم على الطبيعة والسيطرة عليها أكثر من انشغالهم من الحكم على الشعب ، والغاية من هذه المؤسسة – الحكومة – هي معرفة علل الأشياء وحركاتها الخفية ، وتوسيع رقعة الإمبراطورية الإنسانية للتأثير على كل شيء ممكن "[١] .

وهذه الجملة هي مفتاح سياسة بيكون وكتابه ؛ وإذا كان بيكون قد صرّح في مقالاته إلى وجوب اتخاذ الملك للمستشارين ، فإنه لم يبين واجب هؤلاء المستشارين ، وما طبيعة المهام المنوطة بهم إتمامها ، ولكنه هنا يبين هذه المهام فيقول : " إن من واجب الملك ليس فقط الرجوع إلى مستشاري الدولة ، وإنما عليه أن يُقْصر مهمة هؤلاء على تلقي ما يعهد إليهم بدراسته من أمور ، يدرسونها ويقلّبون الرأي فيها ، ثم يعودون بالأمر إلى الملك ليتخذ القرار ويوجهه ، ويكون قراره مزودا بالحكمة وبالقوة "[٢] .

وينبه بيكون إلى ما يمكن أن يكون في المشورة من مخاطر يجب تجنبها ، أو عيوب يلزم علاجها ،(فالمشـــورة تعني في نهاية الأمر إطلاع الآخرين على بعض أمور الدولة ، وقد تنطوي من ثمة على إفشاء ما ينبغي أن يظل ســـرا ؛ وهي كذلك تقلل من سلطة الحاكم ، لأنه عندئذ يحكم مستعينا بعون الآخرين من المستشارين ، وهي أخيـــرا تعرّض الحاكم لأن يثق بمن لا يكون أهلا لهذه الثقة، فقد لا تجيء المشورة خالصة ،وقد تستهدف النفع لمن يقدمها لا لمن تقدم إليه)[٣].

---

(١) المدينة الفاضلة ، د/ إسحاق عبيـــد ، ط ١ ســـنة ٢٠٠٠ م ، دار الفكـــر العربـــي بالقاهرة ، ص ٣٤ .

(٢) فلسفة فرنسيس بيكون ، حبيب الشاروني ، ص ١٠٩ .

(٣) تاريخ الفلسفة السياسية ، ليو شتراوس ، جـــ ١ ، ص ٥٥٥ .

(يجب إذن على الحاكم أن يختار مستشاريه ، وأن يختارهم بحكمة ، فيكونوا حكماء مخلصين ، جديرين بالثقة ، وفي الوقت نفسه لا يفضي إليهم من أمور الدولة إلا بقدر يختاره بدقة ، وعليه أن يتجنب المنافقين في مجالس الشورى؛ ولن يفقد الحاكم شيئا من سلطانه إذا راعى في اختيار مستشاريه تلك الأمور ، وجعل من بعضهم عيونا على بعــض ، وأتاح لنفسه أن يلتقي بهم أحيانا فرادى ، وأحيانا مجتمعين) [1].

بهذا الأسلوب الميكافيللي يرسم بيكون السياسة التي ينبغي على الحاكم أن يتبعها مع رعيته ؛ وتتجلى براعة بيكون في الاستشهاد بالآيات الدينية التي توحي بفضائل المسيحية ، وإن كانت تنتهي بالعكس إلى تأييد النزعة الميكافيللية .

ويستمر بيكون في رسم سياسة مدينته الداخلية والخارجية ؛ فيقول :- " وفي البلاد تجارة خارجية ، ولكنها من نوع غير عادي ، فإن الجزيرة تنتج وتستهلك ما تنتج ولا تدخل في حرب من أجل تأمين الأسواق الخارجية ، وهذه التجارة ليست للذهب والفضة والمجوهرات ، ولا لأي نوع آخر من السلع والمواد، ولكنها فقط للحصول على ما خلقه الله أولا وهو العلم ، وللحصول على التطور والمعرفة في جميع أنحاء العالم .

إن تجار العلم هؤلاء – أعضاء بيت سليمان – يُرْسَلون إلى الخارج كل اثني عشر عاما ليعيشوا بين الشعوب الأجنبية في كل قطر من أقطار العالم المتمدن ويتعلموا لغاتها ، ويدرسوا علومها وصناعاتها وآدابها ، ثم يعودون في نهاية الإثني عشر عاما ، ليقدموا بعد ذلك تقاريرهم وأبحاثهم عن مشاهداتهم إلى زعماء بيت سليمان ، بينما تحتل جماعة أخرى من العلماء

---

(١) قصة الفلسفة ، ول ديورانت ، ص ١٧٣ .

أماكنهم في الخارج ، وبهذه الطريقة يدخل إلى أطلنتس الجديدة أفضل ما في العالم " [1].

وعلى الرغم من اختصار الباحث وصف مدينة بيكون ، واقتصاره في ذلك على أهم الملامح السياسية التي تربط بين الحاكم وشعبه ، وعلاقة الدولة بغيرها من الدول ، إلا أننا نجد فيها موجزا لكل مدينة فاضلة وضعها فيلسوف ، يقوم عليها رجال عقلاء حكماء يرشدون شعبهم – في سلام واعتدال – إلى ما فيه خير البلاد ؛ وهذا الأمر – وهو استبدال محترفي السياسة بالعلماء – كان ولا زال حلم كل مفكر .

ولكن ..... ما الأسس والعوامل التي تأسست عليها فلسفة فرنسيس بيكون السياسية ووجهتها هذه الوجهة ؟

هذا ما سنتعرف عليه – بمشيئة الله تعالى – من خلال المطلب التالي .

---

(١) المدينة الفاضلة عبر التاريخ ، ماريا لويزا ، ص ١٦٩ .

المطلب الثالث
الأسس التي قامت عليها فلسفة فرنسيسس بيكون السياسية

يمكن القول بأن فلسفة بيكون السياسية تدور حول موضوع واحد هو " علاقة الإنسان بالطبيعة " ، ويمكن القول كذلك إن وراء هذا الموضوع عند بيكون كانت هناك عدة عوامل وأسس هامة شكّلت الأرضية التي قامت عليها فلسفة بيكون السياسية ، ووجّهتها وجهتها الخاصة التي ظهرت عليه ؛ كما أن هذه العوامل بعضها قد أعطى بيكون الخيوط الرائدة في فلسفته السياسية ، وبعضها أعطاه مِزاجا تتلون في ضوئه هذه الخيوط .

ويمكن إجمال هذه الأسس والعوامل في خمسة ؛ وهي :-

العامل الأول : المِزاج الديني الذي نشأ فيه بيكون سواء في أسرته أم في بلده ؛ أما أسرته فقد عرفنا أن أمه كانت من أتباع مذهب كلفن المتشددين ، الداعي إلى تبسيط المسيحية واختصار أسرارها إلى العِماد والقُرْبان واعتبار قيمتها رمزية، " كما كانت تنتمي إلى الشيعة التطهرية التي تطالب بالتمسك الصارم بأهداب الفضيلة ، وكان الجو الأسري هو نفس الجو السائد في جيل الملكة إليصابات في إنجلترا ، وهو جيل البروتستانتية المتسمة بالورع والتحمس للسلوك الديني الفاضل أكثر من التمسك بالطقوس أو الإيمان بالأسرار " [1].

في هذا الجو تأتي مظاهر التدين في القراءات اليومية للكتاب المقدس وفي المواظبة على الصلاة اليومية في الأسرة .

وإذا كانت الأم قد استطاعت أن تؤثر بتدينها في كل من ابنيها " أنطوني " و " فرنسيس " ، وأن يمتد تأثيرها فيهما حتى بعد غادرا منزل

---

(1) Farrington , Benjamin : Francis Bacon , philosopher of industrial science , (Ney York 1949) ,P. 28 .

الأسرة ، فإن الوضع الاجتماعي للأسرة – وهو مرتبط بالوضع الديني – كان له كذلك تأثيره على فرنسيس بيكون ؛ كما كان الأب علمانيا ، تولى منصبه كغيره من الوزراء العلمانيين الذين حلوا محل رجال الدين في مناصب الدولة العليا .

فبيئة الأسرة بهذا الوضع تمثل انفصال السلطة الزمنية عن السلطة الدينية ، وتمثل بالتالي تحرر الأولى من الثانية .

ولم تكن الأسرة في تمسكها بالتدين وفي دلالتها في الوقت ذاته على انفصال السلطة الزمنية عن الكنيسة سوى صورة مصغرة تعكس الوضع العام للمجتمع الإنجليزي ، فقد تضاءل أو تلاشى في انجلترا سلطان الكنيسة ، وتلاشت معه سلطة رجال الدين لا سيما بعد حلّ الأديرة وتوزيع أراضيها على عامة الشعب ممن يستحقونها .

العامل الثاني : الكتاب المقدس ؛ وقد كان لهذا العامل أثر كبير في تكوين فلسفة بيكون السياسية ، ولهذا العامل أهمية خـــاصة لأنه متعدد الجوانب ؛ فبعد قرون طويلة ودراسات مستفيضة قام بترجمة الكتاب المقدس نخبة من رجال الدين المثقفين ، وأثمرت جهودهم عن قمة السمو في الأسلوب والبلاغة ، " وكان لهذا الأمر آثاره على الشعب الإنجليزي بصفة عامة ، وعلى فرنسيس بيكون بصفة خاصة .

أما الإنجليز فقد اتجهوا إلى النظر إلى خبراتهم الخاصة في ضوء ما جاء في أسفار الكتاب المقدس ، ومضوا إلى التعبير عن حياتهم السياسية والاجتماعية ببعض أساليبه ، وإذا كان من الانجليز من أدى به الإخلاص للكتاب المقدس إلى الاعتقاد بأنه يشارك في معرفة الغايات والأهداف الإلهية ، وبأن الله قد أراد عصرا جديدا للكنيسة وللإصلاح ، فإن بيكون كان في ذلك أقل غلوا – ولا نقول أكثر اعتدالا – لأنه قد كان لديه اعتقاد راسخ بأنه الأداة

المختارة التي سيحقق بها الله الإصلاح المنشود ، وقد نَمَى لديه هذا الاعتقاد من قراءته للكتاب المقدس ، وظهرت لديه آثاره في أكثر من مجال " [1].

فقراءة بيكون للكتاب المقدس ، لا سيما سفر التكوين قد أوحت لبيكون بفكرة من أهم أفكاره الفلسفية ، هي فكرة استعادة الإنسان لسيادته على الطبيعة كما كان الأمر قبل الخطيئة الأصلية .

ولم يكن تأثر بيكون بالكـــتاب المقدس قاصرا على هذه الفكرة الرئيسية ، وإنما نجد خطا ممتدا تتعدد فيه نقاط الالتقاء بين إيحاءات الكتاب المقدس ومعانيه وبين فلسفة بيكون السياسية ؛ وعلى سبيل المثال : فهناك التقاء بين الاسم الذي أطلقه على مدينته " أطلنتس الجديدة " في اسم أرضها وفي اسم معهدها " دار سليمان " وبين هذه الأسماء في الكتاب المقدس .

<u>أما العامل الثالث</u> فهو بعض مكتشفات العصر ، وما صاحبها من ثورة لا سيما في مجال الصناعة ، وإذا كان بيكون قليل الاهتمام بمكتشفات القرن الرابع عشر وعصر النهضة ، وأنه جهل أو تجاهل أعمال كبار العلماء في عصره، كما أنه لم يدرك قيمة الرياضيات وأهميتها في تكوين العلم الطبيعي ، ولم يدرك أهمية قوانين كبلر وبحوث جاليليو ، إلا أن هذه المكتشفات والبحوث جميعها قد أدت إلى شعور الإنسان بازدياد سلطانه على الأرض والرغبة في توسيع هذا السلطان ، وعرف الناس أن العلم لا يقتصر على ما فوق الطبيعة ، ومن هنا كانت دعوة بيكون ورسالته قد تهيأت لها الأذهان وتمهد لها طريق الارتياد بما أحســـه الإنسان من رغبة في المعرفة وفي الإفادة من هذه المعرفة ؛ هذا من ناحية البيئة التي سوف تستجيب لدعوة بيكون .

---

(١) فلسفة فرنسيس بيكون ، حبيب الشاروني ، ص ٢٠ ، ٢١ .

أما من ناحية بيكون نفسه فقد التفت إلى بضع مكتشفات ومخترعات كان لها أبلغ الأثر على حياة البشر ، هذه المكتشفات هي الطباعة والبارود والبوصلة .

" أما الأولى فقد تركزت أهميتها لديه لا من حيث هي وسيلة لنشر المخطوطات والكتابات القديمة ، وإنما لإذاعة العلم الجديد الذي نستقيه من كتاب الطبيعة .

وأما البارود فقد برزت لديه أهميته ليس في حماية انجلترا البروتستانتية من قوة أسبانيا الكاثوليكية فحسب ، وإنما كذلك في نقل السيادة على البحار من يد الأسبان إلى الإنجليز ، وإذا كنا نلاحظ أن بيكون كان يفكر هنا أولا من حيث هو انجليزي ، فإنه لا ينبغي أن نغفل عن أنه قد اتجه برسالته وعلمه لا إلى الشعب الإنجليزي وحده وإنما إلى الناس جميعا والعلماء منهم بوجه خاص .

وأما البوصلة ، فقد جاءت مع اكتشاف المغناطيسية ، وكانت أداة بالغة الأهمية في مجال الملاحة ، وقد كانت لديه بمثابة الرمز الذي يشير إلى رحلات الاستكشاف التي قام بها البرتغاليون والأسبان والانجليز ، والتي أتاحت لأوربا أن تعرف عن طريقها العالم الجديد " [1].

هذه المخترعات الثلاثة التي أظهرت للقرن السادس عشر مدى ما يمكن أن تفعله المخترعات الآلية في حياة الناس ، قد وجّهت اهتمام بيكون إلى أهمية تأثيرها على التاريخ البشري ، ومن هنا كانت رسالة بيكون السياسية وما انطوت عليه من فلسفة تبغي الإفادة من المخترعات العلمية في تغيير حياة الناس .

---

(١) تاريخ الفلسفة السياسية ، ليو شتراوس ، جـ ١ ، ص ٥٥٢ .

أمـــا العامل الرابع فيتمثل في الفلسفة اليونانية وفلاسفتها ، ولقد مرّ بنا أن بيكون قد التحق وهو في الثانية عشرة من عمره بكلية ترينتي بجامعة كامبريدج ، وبقي بها ثلاث سنين يتابع مناهج التدريس التي كانت تنْصَب على منطق أرسطو وميتافيزيقاه ولاهوت القديس توما الأكويني ، كما عرفنا كذلك أنه لم يـــرض عن هذه المناهج الدراسية فانصرف عنها إلى الدراسات القانونية ، لكن انصرافه عن هذه المناهج لا يعني عدم تأثره بها بشكل أو بآخر .

(والواقع أن موقف بيكون جاء كرد فعل إزاء المغالاة التي انتهى إليها العصر الوسيط متابعة مبدأ اليونان ، وهو أن الحقيقة تطلب لذاتها لا لما يترتب عليها من اعتبارات علمية ، وقسوة هجوم بيكون في " الأورجانون الجديد " وفـــي كتاب " تقدم العلوم " على فلاسفة اليونان ، وعلى أرسطو بالذات ، دليل على اتجاه بيكون نحو العلم القابل للتطبيق في مجال الصناعة وغيرها) [1].

أما العامل الخامس والأخير في توجيه فلسفة بيكون السياسية فيمكن أن يتضح لنا بالنظر إليها في ضوء علم النفس التحليلي ، إذ إن هذا العلم قد أصبح منذ فرويد وغيره من العلماء أحد المناهج الرئيسية في دراسة المفكرين والفلاسفة التي تعين على فهم آرائهم ونظرياتهم ، كما أن هذا المنهج يسهل تطبيقه على الفلاسفة المحدثين مما يتيح لنا معرفة الكثير عن حياتهم ؛ ونحن نعرف تفاصيل حياة بيكون ، ونعرف كذلك أنه قد صاحبها الفشل والإخفاق منذ وفاة أبيه ، وبناء على ذلك يمكن أن ننظر إلى فلسفة بيكون السياسية في مجال الفلسفة والعلم على أنها نوع من التعويض أو

---

(١) المدينة الفاضلة عبر التاريخ ، ماريا لويزا ، ص ١٧٣ .

الإعلاء عن إخفاقه المتكرر ، عن فشله أول الأمر إبان حكم الملكة إليصابات في بلوغ ما كان يهدف إليه من مناصب وألقاب ، ثم عن فشله آخر الأمر بعد عزله من الوظيفة وحرمانه من مقعده بالبرلمان ، " وقد يتأيد هذا التفسير السيكولوجي إذا تذكرنا أن معظم الكتب والأبحاث التي حررها بيكون كان يتم تحريرها في فترات إخفاقه ، أو فترات شعوره بنذير الإخفاق في أي من مشاريعه السياسية أو المادية " [1].

هذه هي أهم العوامل والأسس التي شكّلت الأرضية التي قامت عليها فلسفة بيكون السياسية ، ووجّهتها وجهتها الخاصة التي ظهرت عليه .

والله تعالى أعلى وأعلم

****

(١) فلسفة فرنسيس بيكون ، حبيب الشاروني ، ص ٢٦ .

الخـاتمة

بعد أن عرضت لموضوع فلسفة السياسة عند فرنسيس بيكون استطعت الوقوف على النتائج الآتية :

أولًا : أن الكون كله يتجه إلى الله في طاعة خاضعة وخشوع ساجد ، والحياة بقضّها وقضيضها رهن الإرادة الإلهية ، والإنسان وسط هذا العالم قد تحمّل – وحده – الأمانة في قيادة الحياة بمنهج الله ، ومن هنا كانت السياسة فصلا من فصول ذلك المنهج الإلهي ، وأصبح البحث فيه موصول بشعب الإيمان وعقائده .

ثانيًا : أن كل فيلسوف يزعم أنه يدعو لخير الإنسان بالمعنى الكلي ، وهذا غير صحيح بإطلاق ، لأن الدعوة في الواقع لخيره هو ، أو لما يراه هو خير ، وهو من ناحية أخرى صحيح ، لأن كل فيلسوف منهم إنسان يرجع إلى نسبية الحقيقة .

ثالثًا : أن الفلسفة تتعامل مع الفكر الذي يسيّر المجتمع ، أي مع السلطة ، والفيلسوف إنسان ، ينماز بأنه يفكر أكثر قليلا من غيره ، فإذا أحب السُلطة فهو معذور ، لأنه لا يمكن تحقيق " فكره " إلا عن طريق هذه " السلطة " .

رابعًا : كلما زاد اهتمام الفيلسوف بالمجتمع كان اقترابه من السلطة أقوى وأشد ، وقد تبدو أفكار الفيلسوف مجرد أحلام خيالية ، ولكنه يُصرّ على واقعيتها ، وأنها ممكنة التطبيق إذا ما تحققت الشروط الواجبة لهذا التطبيق حسبما اهتدى إليها من خلال دراسته وأبحاثه .

خامسًا : أن فرنسيس بيكون شخصية تضاربت الآراء في تقييمها والحكم عليها ، وما ذلك إلا لكونه فيلسوف مضطرب في حياته ، تنازعته

الفلسفة والسياسة ، فكان في ميوله وطبيعته مـــا يربطـــه بالفلســـفة ، إلا أن تربيته وثقافته وظروف معيشته قد اتجهت به نحو السياســـة ، فصـــعدت بـــه السياسة إلى قمة المجد ثم هوت به إلى الحضيض .

سادسًا : أن بيكون قد قرأ الكتاب المقدس وتأثر به ، ولكنه كان تـــأثر الفيلسوف الذي لا ينغلق في إطار الدين ، أو ينتهي إلى التعصب .

سابعًا : أن بيكون قد اجتمعت في حياته كل الملابسات التي تجعل منـــه ملكيا مؤمنا بالحكومة المركزية القوية ، وبأن على رأس الدولة يلزم أن يكون ملك حكيم.

ثامنًا : أن الرسالة الإنسانية والرسالة القومية تمتزجان عنـــد بيكـــون حين يتحدث عن القوة البحرية ، لأنه حينئذ ينظر إلى بريطانيا وإلـــى طريقهـــا نحو مستعمراتها فيما وراء البحار .

تاسعًا : أن أطلنتس الجديدة لدى بيكون ليست حدثا فلســـفيا رائعـــا ، وإنما هي أقرب إلى الخيال من أن تكون فكرة مصلح أو خطة فيلسوف ، كمـــا أنها مسبوقة بغيرها من المدن الفاضلة .

هذا والله تعالى أعلى وأعلم

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث بالمعجزات الباهرات رحمة للعالمين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين .

الراجي عفو ربه
رفاعي ممدوح عبدالنبي عرابي
مدرس العقيدة والفلسفة
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

مصادر البحث ومراجعه

القرآن الكريم – كتاب الله تعالى .

١- الأخلاق والسياسة – دراسة في فلسفة الحكم ، د/ إمام عبدالفتاح إمام ، طبعة المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة سنة ٢٠٠١ م .

٢- الإسلام والسياسة – الرد على شبهات العلمانيين ، د/ محمد عمارة ، ط ١ سنة ١٩٩٧ م ، دار الرشاد بالقاهرة .

٣- الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، تحقيق : د/ محمد عمارة ، طبعة دار الشروق بالقاهرة سنة ١٤١٤ هـ .

٤- أعلام الفلاسفة ، هنري توماس ، ترجمة وتحقيق : متري أمين – زكي نجيب محمود ، ط ١ سنة ١٩٦٤ م ، دار النهضة العربية بالقاهرة .

٥- أعلام الفلسفة الحديثة ، د/ رفقي زاهر ، ط ١ سنة ١٩٧٩ م ، مكتبة النهضة بالقاهرة .

٦- تاريخ الفلسفة الحديثة ، د/ محمود حمدي زقزوق ، ط ٥ ، بدون تاريخ ، دار المعارف بالقاهرة .

٧- تاريخ الفلسفة الحديثة ، يوسف كرم ، ط ٥ بدون تاريخ ، دار المعارف بالقاهرة .

٨- تاريخ الفلسفة السياسية ، ليوشتراوس – جوزيف كروبسي ، ترجمة : محمود سيد أحمد ، تقديم : د/ إمام عبدالفتاح ، طبعة المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة سنة ٢٠٠٥ م .

٩-تاريخ الفلسفة الغربية ، برتراند رسل ، ترجمة : د/ محمد فتحي الشنيطي ، ط ١ سنة ١٩٧٧ م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة .
١٠-تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات ، لأبي علي بن سينا ، ط ٢ بدون تاريخ ، دار العرب للبستاني .
١١-تطور الفكر السياسي في الإسلام ، د/ فتحية النبراوي – د/ محمد نصر مهنا ، ط ١ سنة ١٩٨٤ م .
١٢-دراسات في الفلسفة الحديثة ، د/ محمود حمدي زقزوق ، ط ٣ سنة ١٩٩٣ م ، دار الفكر العربي بالقاهرة .
١٣-السياسة الشرعية ، أو نظام الدولة الإسلامية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية ، للشيخ عبدالوهاب خلاف ، طبعة دار الأنصار بالقاهرة سنة ١٩٧٧ م .
١٤-السياسة الشرعية والفقه الإسلامي ، للشيخ عبدالرحمن تاج ، ملحق مجلة الأزهر ، عدد شهر رمضان لسنة ١٤١٥ هـ .
١٥-صحيح البخاري ، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق : محمد زهير ، ط ١ سنة ١٤٢٢ هـ ، دار طوق النجاة بدمشق .
١٦-عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، لابن أبي أصيبعة ، تحقيق : د/نزار رضا ، طبعة مكتبة الحياة ببيروت – بدون تاريخ .
١٧-فاتحة العلوم ، للإمام أبي حامد الغزالي ، طبعة دار الهداية بالقاهرة سنة ١٣٣٥ هـ
١٨-الفلسفة الحديثة ورؤية جديدة ، د/ نازلي إسماعيل حسن ، ط ١ سنة ١٩٧٩ م ، مكتبة الحرية بالقاهرة .

١٩-الفلسفة والسلطة ومقالات أخرى ، علي فهمي خشيم ، ط ١ سنة ١٩٩٩ م ، دار الكتب الوطنية – ليبيا .
٢٠-فلسفة فرنسيس بيكون ، د/ حبيب الشاروني ، ط ١ سنة ١٩٨١ م ، دار الثقافة ، الدار البيضاء بالمغرب .
٢١-الفلسفة اليونانية مقدمات ومذاهب ، د/ محمد عبدالرحمن بيصار ، طبعة دار الكتاب اللبناني ببيروت سنة ١٩٧٣ م .
٢٢-قصة الفلسفة ، ول ديورانت ، ترجمة : د/ فتح الله أحمد المشعشع ، ط ٦ سنة ١٩٨٨ م ، مكتبة المعارف – بيروت .
٢٣-قصة الفلسفة الحديثة ، د/ زكي نجيب محمود ، ط ١ سنة ١٩٣٦ م، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة .
٢٤-الكليات ، لأبي البقاء الكفوي ، ط ٢ سنة ١٩٩٨ م ، مؤسسة الرسالة – بيروت .
٢٥-لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور ، ط ٣ سنة ١٤١٤ هـ ، دار صادر – بيروت .
٢٦-المدخل إلى الفلسفة ، د/ علي عبدالمعطي محمد ، طبعة دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية سنة ٢٠٠٠ م .
٢٧-مدخل إلى الفلسفة السياسية : رؤية إسلامية ، محمد وقيع الله أحمد ، ط ١ سنة ٢٠١٠ م ، دار الفكر بدمشق .
٢٨-المدينة الفاضلة ، د/ إسحاق عبيد ، ط ١ سنة ٢٠٠٠ م ، دار الفكر العربي بالقاهرة .
٢٩-المدينة الفاضلة عبر التاريخ ، ماريا لويز ابرنيري ، ترجمة : د/عطيات أبوالسعود ، طبعة سلسلة عالم المعرفة بالكويت سنة ١٩٩٠ م .

٣٠-المذاهب الفلسفية العظمى ، د/ محمد غلاب ، ط ١ سنة ١٩٤٨ م ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة .
٣١-معجم الفلاسفة ، جورج طرابيشي ، ط ٣ سنة٢٠٠٦ م ، دار الطليعة ببيروت .
٣٢-المعجم الفلسفي ، جميل صليبا ، طبعة دار الكتاب اللبناني ببيروت ، سنة ١٩٨٢ م .
٣٣-المعجم الفلسفي ، د/ عبدالمنعم الحفني ، ط ١ سنة ١٩٩٠ م ، الدار الشرقية بالقاهرة .
٣٤-المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ط ١ سنة ١٩٦٠ م ، مكتبة الشروق الدولية .
٣٥-مقال في الثورات والاضطرابات ، ضمن مؤلفات فرنسيس بيكون الفلسفية ، ترجمة د/ حبيب الشاروني ، طبعة دار الثقافة بالمغرب سنة ١٩٨١ م .
٣٦-المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، أحمد بن علي المقريزي، طبعة مكتبة المتنبي ببغداد سنة ١٩٦٥ م .
٣٧-موسوعة أصول الفكر السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، د/خديجة النبراوي ، تقديم : د/ حسن عباس زكي – د/ علي جمعة محمد ، ط ١ سنة ٢٠٠٤ م ، دار السلام بالقاهرة .
٣٨-نصوص ومصطلحات فلسفية ، د/ فاروق عبدالمعطي ، ط ١ سنة ١٩٩٣ م ، دار الكتب العلمية – بيروت .
39- Farrington , Benjamin : Francis Bacon , philosopher of industrial science , (Ney York 1949).